من حصاد الفكر الدعوى

دروس وعبر
من سيرة خير البشر
« في غزوة أحد »

بقلم
الأستاذ الدكتور
محمد المختار محمد المهدي
إمام أهل السنة
والرئيس العام للجمعيات الشرعية
والأستاذ بجامعة الأزهر

الإهـــداء

إلى شباب اليوم

ليتعلم سنة الكون

وليستلهم التاريخ حين يعتزم البناء

مُقَدِّمَة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله ومن والاه .. أما بعد ،،

فمن بدء الخليقة ، والظلام يتربص بالنور ، وقد استكن فى صدره كل حقد وضغينة ، وما استطاع إلا أن خفت الشعاع !! فليس فى مقدور الباطل أن يمحو نور الحق ، كما ليس فى طاقة الفم أن تطفئ شمس السماء .

وما زالت قافلة الحق تسير ، ولو أنها تسير ببطء ممل !! لكن فى أزوادها قوة ، وفى أعقابها عبرة .. ولسوف تجرد بضائعها ولو بعد حين .. وستلتفت حتمًا إلى ماضيها الفذ ، تستلهم منه الهدى ، لتبنى المستقبل على أساس .. وستعلم أن الأحداث أقوى فى التوجيه ؛ لأنها من التاريخ ، والتاريخ معبّد الطريق أمام الأمم .

هذا البحث

جهد المقل ، وبنان العاجز ، وطاقة الأعشى أمام الضوء الباهر .. ذلك الذى أقدمه اليوم ، بعد أن طافت بذهنى ذكريات الشهداء ..

وصففت أقدامى على درب البطولة و الكفاح
وطفقت أبحث وسط صرعى مثخنين من الجراح
وإذا بأشلاء ممزقة تنادى فى صياح
هذا سبيل النصر فامضوا لا تخافوا من سلاح
بدم وتضحية وتصميم على نيل الفلاح
حتمًا سيشرق بينكم إن رمتمُ نور الصباح
الموت حق لن تعجّله المدافع والرماح
للموت حد لن يؤخره التقهقر والجماح
إيمانكم هو ذخركم هو سر إحراز النجاح

وإن تاريخ هذه الأمة لمنجذب إلى قائدها بسبب متين .. وإن معاركه ضد الباطل لتشعل المصابيح على الطريق .. ومن المعارك " **أُحد** " ، وفي " **أُحد** " نكسة ، وما أبقى درس النكسة !!

إن درس النصر قد تنسيه الفرحة الغامرة ، أما النكسة فتهيئ للنفس فرصة تسترجع فيها ذكرى الأخطاء .. فلا يبرح هذا الطيف حتى يترك فيها حزًا غائرًا ، وكلمًا لا يقبل تكرار الخطأ .

في قصة " **أُحد** " معصية وميل للدنيا .. ومع المعصية والميل تبهت علائم الهدف ، وتختلط الصور في العيون .

في قصة " **أُحد** " تربية لابد منها لصنع قادة ، يحملون أكبر علم للنور والهدى والعرفان ، يحولون به تيار الفساد إلى سلسل من طهر ونقاء .

فـى قصــة " **أُحـد** " لفتــة مــن لفتــات القــدر ، تعلـم المسلم نـاموس الحياة ، وتقضى على ما يمكن أن يصيبه من زهو وغرور بحقائق الواقع .

فـى قصـة " **أُحد** " عبـرة أفـاد المسـلمون منهـا فـى تـاريخهم الأغـر .. فكان لنكبـة " **أُحـد** " أثـر فـى نصـــر " **الخندق** " .. وكان لها الفضل فى مواقف النضـال مـع أعتى قوتين فى دنيا الناس يومذاك .

ومـا أمـس حاجتنـا اليـوم ، لـنفحص نكسـة الأمـس ، حتى ننهض من نكسة اليوم .

أ.د. محمد المختار محمد المهدى

الأستاذ بجامعة الأزهر

ورئيس مجلس إدارة الجمعية الشرعية الرئيسية

مرجل قريش يغلي بعد بدر

عادت فلول " بدْر " كاسفة البـال ، مكتئبـة النفس ، حانقـة الصـدر ، تغلـى لـديها روح الحميـة الجاهليـة ، والعصبية القبلية ، وتتجرع غصص الهزيمة المرة التـى لـم تـر مثلهـا فـى تاريخهـا الطويـل .. عـادت وفـى نفسـها لوعـة ، وبين حناياهـا ثـورة ، لا تريـد لهـا أن تهـدأ حتـى تثأر لشرفها المثلوم ، وكرامتها الملتاثة .

ذلكـم هـو إحسـاس الكفـر الملتهـب وقلبـه الواجـب المضطرب ، ومرجله الثائر .. يتكشف من ثنايـا التـاريخ بتلكم الأحداث .

سلاح الدعاية والإثارة

١ – فور وطـأة أقدامهم مكـة .. اتجهوا سراعًا نحو دار الندوة ، يتقدمهم " عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة

بن أبى جهل ،وصفوان بن أمية "،وبنفس ملتاعة ، خاطبوا " أبا سفيان " : " نحن طيبو الأنفس بأن تجهز بربح هذه العير إلى محمد ، فإنه قد وترنا وقتل خيارنا !! " .

فرد " أبو سفيان " : " أنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد المطلب معى " ، وكانت قيمة العير التى نفروا لـ " بدر " بسببها والتى يتحدثون عنها الآن .. خمسين ألف دينار .

وفورًا نفّذ " أبو سفيان " ، فسلّم رءوس الأموال إلى أهل العير .. وعزل الأرباح التى بلغت قيمتها خمسين ألف دينار أيضًا ، إذ كانوا يربحون فى الدينار دينارًا .

ومن هنا تبدأ خيوط " أحد " .

٢ – انتدبوا من شعرائهم [١] " مسافع بن عبد مناف " يستنفر بنى مالك .. ، و" أبا عزة عمرو بن عبد الله الجمحى " ليستثير غضب الأحابيش من بنى كنانة وبنى خزيمة ، و" ابن الزبعرى " لقبائل أخر .

وأرسلوا نفرًا آخر [٢] من أدهى العرب وأمهرهم " كعمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبى وهب " إلى بطون العرب يستعدونها بشعرهم الحاقد ، ودهائهم المشهود .

ومما يدل على التصميم ، أن " أبا عزة " الشاعر كان أسيرًا عند رسول الله ﷺ فى " **بدر** ".. وقد مَنّ عليه على ألا يشترك فى حربه ، لكن " صفوان " قال له : " أعنّا بنفسك ، فلك الله علىَّ إن رجعت أن

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) الكامل لابن الأثير .

أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر " ، فأغرى " أبا عزة " بالمال .. وخان العهد .

وانطلقوا جميعًا ألسنة لهب ، وأبواق حرب ، وغربان شؤم ، ونذير دمار .

ويمكرون ويمكر الله

٣ - جلس " عمير بن وهب الجمحى "[١] مع " صفوان ابن أمية " فى الحجر بمكة - وكان عمير شيطانًا من شياطين " قريش " .. وكان ابنه " وهب " من أسارى بدر - فذكرا أصحاب القليب ومصابهم .. فقال " صفوان " : " والله ليس فى العيش بعدهم خير " ، قال له عمير : " صدقت والله .. أما والله

---

(١) نبى البر لابن هشام .

لولا دينٌ علىَّ ليس له عندى قضاء ، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى **محمد** حتى أقتله ، فإن لى قِبَلهم علَّة ، ابنى أسير فى أيديهم " ، وهنا حانت الفرصة أمام " صفوان " .. إن هذا صيد كـ " أبى عزة " تمامًا .. يمكن أن يغرى بالمال ليسكت صوت **محمد** .

وهكذا كان " صفوان " ومن معه يفرغون كل ما فى جعبتهم بسفه وسرف ليطفئوا نور الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾[1] .

ويجيب " صفوان " : " علىَّ دَيْنُك .. أنا أقضيه عنك .. وعيالُك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى

---

(١) سورة الأنفال – آية رقم ٣٦ .

شـىء ويعجـز عـنهم " ، فقـال لـه " عُمَيـر " : " فـاكتم شأنى وشأنك !! "

ثم أمر " عمير " بسيفه فشحذ له وسُمّم ثم انطلق حتى قدم المدينـة فرآه " عمر " ينيخ على بـاب المسـجد متوشحًا سيفه ، فقـال : " هـذا الكلب عدو الله **عمير** .. والله ما جاء إلا لشر .. وهو الذى حرش بيننـا ، وحزرنـا للقوم يوم بدر "

ثـم دخـل " عمـر " يخـبر رسـول الله ﷺ بقـدوم " عُميـر " فـأذن لـه بالـدخول ، فلبَّبَـه " عمـرُ " بحمالـة سيفه ، وأدخلـه على رسول الله ﷺ ، وقـال لرجـال ممن كـانوا معـه من الأنصـار : " ادخلـوا علـى رسـول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليـه مـن هذا الخبيث ، فإنـه غير مـأمون " ، فلمـا رآه الرسول ﷺ قـال : « **أرسـله يـا عمر .. ادن يا عمير** » ، فدنا ثم قال : " أنعموا صباحًا " ،

فقال رسول الله ﷺ : « **قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير.. بالسلام .. تحية أهل الجنة** » ، فقال : " أما والله يا **محمد** إن كنتُ بها لحديث عهد " ، فقال الرسول ﷺ : « **فما جاء بك يا عمير؟** » ، قال : " جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه " ، قال النبى ﷺ : « **فما بال سيفك فى عنقك ؟** » ،قال : " قبّحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئًا " ، قال : « **أصدقنى ما الذى جئت له ؟** » ، قال : " ما جئت إلا لذلك " ، قال ﷺ : « **بل قعدت أنت وصفوان بن أمية بالحجر فذكرتما أصحاب القليب من " قريش " ، ثم قلت : " لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا " ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له .. والله حائل بينك وبين ذلك** » .

إسلام إيجابي

قال " عمير " مشدوهًا : " أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ، فقال رسول الله ﷺ : « **فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره** » ، ففعلوا ، وتكفل الصحابة بتفقيه " عمير " بالمنهج الذي كان يسلكه رسول الله ﷺ معهم ، وهو المنهج الرائد العظيم الذي يجب أن نتلقى عنه ، ونلقنه لنشئنا والمسلمين الجدد .

لقد خرج " عمير " من تفقيه الصحابة له بأن الإسلام نور ، يجب أن يعم الدنيا ، وأنه لا يصح كتمانه عن الناس جميعًا .. فَهِم ذلك في أيام قلائل ، فتحول

مجرم الأمس إلى ملاك بشرى ، يود هداية العُمْى الذين لا يبصرون ، قال يا رسول الله : " إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله .. وإنما أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم .. وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم " .. فأذن له الرسول ﷺ لينطلق داعية إلى النور وسط دياجير الوثنية والإلحاد .

ثم إن صفوان كان يقول حين خرج " عمير " : " أبشروا بوقعة تأتيكم فى أيام تنسيكم وقعة بدر " ، وكان يسأل الركبان عن " عمير " ، حتى قدم راكب ، فأخبره بإسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبدًا ولا ينفعه بنفع أبدًا .. فلما قدم " عمير " إلى مكة ظل يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديدًا .. فأسلم على يديه ناس كثير .

وهذا هو الإيمان الحى والإيجابية التى يزرعها الإسلام فى نفوس أصحابه ، وهذا ما ينبغى أن نفعله مع المسلمين الجدد .

غزوة " السويق "

٤ – نذر " أبو سفيان " حين رجع من " بدر "[(١)] ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو **محمدًا** .. ووفاء بنذره ، خرج فى ذى الحجة من السنة الثانية الهجرية فى مائتى راكب من " قريش " ، فسلك طريق " النجدية " حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له " ثيّب " على بعد ١٥ كيلومترًا من المدينة .. ثم خرج من الليل حتى أتى " بنى

---

(١) نبى البر لابن هشام .

النضير " تحت جُنح الليل فأتى " حُيَىّ بن أخطب " فضرب عليه بابه .. فأبى أن يفتح له .. وخافه ، فانصرف عنه إلى " سلام بن مشكم " وكان سيد " بنى النضير " يومذاك .. فأذن له وقَرَاه وسقاه وأعلمه من خبر الناس .. وتبين من هذه المقابلة قوة الدفاع عن المدينة ، وتحسّس أخبار المسلمين .

ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه ، فبعث منهم رجالاً ، أتوا ناحية المدينة يقال لها " العريض " فحرقوا بها نخلاً ، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفًا له فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين .. فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم ، واستعمل على المدينة " أبا لبابة " حتى بلغ " **قرقرة الكدر** " ، فرأوا أزوادًا مطروحة فى الطريق أكثرها من السويق ، قد تخفف " أبو سفيان " وصحبه من حملها ، إمعانًا فى الهرب

وخوفًا من اللقاء .. ولذلك أطلق على هذه المظاهرة الطريفة " غزوة السويق " ، وكانت بعد " **بدر** " بحوالى شهرين .

غيظ مكبوت

٥ - اتفقت " قريش " على ألا تبكى قتلاها حتى لا يشمت بها العدو .. والغيظ المكبوت ، والتيار الحبيس يفعل فى النفوس ألمًا ممضًا لا يحتمل .. فإذا انفجر كان له أثر خطير .. هذا هو " الأسود بن المطلب " الأعمى ، فقد ثلاثة من أولاده .. ولم يستطع أن يبكى عليهم حفاظًا على السمعة ، وخوفًا من عار الشماتة .. وفى الليل سمع نائحة تنوح .. فقال لغلامه : " انظر هل أحل النحيب ؟ وهل بكت قريش قتلاها ، لعلّى أبكى على (أبى

حكيمة) فإن جوفى قد احترق " ، فلما عاد الغلام يخبره أنها تبكى على بعير لها قد ضل .. أنشد يقول :

أتبكى أن يَضِلّ لها بعير ∴ ويمنعُنى من النوم السهود

إلى أن قال :

فبكّى إن بكيت على عقيل ∴ وبكّى حارثا أسد الأسود

هكذا وصل الغيظ بـ " قريش " إلى ما ترجمت عنه تلك النفثات .. بل إن " أبا لهب " لم يحتمل ذلك وأخذته الحمى عقب " بدر " فلم تمهله أكثر من سبعة أيام .

استعداد قريش

بهذه الثروة الثريّة ، وبتلك المحاولات الدنيئة ، وبهذا الحقد القاتل ، تجمعت قوى الكفر ، وتناصرت

بالعصبية والطغيان .. واستعملت أقوى المؤثرات إغراء للفقراء والضعفاء ، والموتورين والأرقاء .

١ – ومن ذلك أن غلامًا رقيقًا عند " جبير بن مطعم " يسمى " وَحشيّ " ، كان راميًا ماهرًا لا يخطئ الرمية .. استدرجه سيده ، ولوح له بِبشارةِ الحرية ، والفكاك من هذا الأسر البليد .. وقال له – حين تجهز الجيش الكافر للقضاء على الإسلام[1] – : " اخرج مع الناس فإن أنت قتلت عمّ **محمد** (حمزة) بِعمّى طُعَيْمة بن عدى فأنت عتيق " .

٢ – اجتمع الملأ من طغاة قريش وعتاتها ، يضعون خطة أخرى على مائدة البحث .. ها هو ذا الجيش .. مستعدّ بكامل العدة .. وهذه هي الخيل مطهمة ومجهزة .. وهؤلاء هم الجنود يفورون ويثورون ..

---

(١) تاريخ الطبرى .

لكن لقاء **محمد** ﷺ يقضى على تلك الثورة ، ويكفكف من تلك الحدة .. فما الذى يضمن رفع الروح المعنوية .. وحث الجند على التحمّس والثبات ؟ لا شىء غير النساء .. يضربن بالدفوف ، ويوقظن الحفيظة فى الصدور !! .

وتخرج " هند بنت عتبة "[1] زوجة " أبى سفيان " رائدة لهذا الرهط ، ومعها زوجة " عكرمة " وزوجة " صفوان بن أمية " وزوجة " عمرو بن العاص " ، وغيرهن حتى بلغن سبع عشرة امرأة .

٣ – واستطاعت " قريش " أن تجمع ثلاثة آلاف مقاتل بعُددهم وعتادهم ، منهم ٧٠٠ دراع ، ٢٠٠ فارس وتولى " خالد بن الوليد " قيادة الميمنة فى الجيش ، وتولى " عكرمة بن أبى جهل " ميسرته ،

---

(١) نبى البر لابن هشام .

و" صفوان بن أمية " قائدًا على المشاة ، وعقد اللواء لـ " طلحة بن أبى طلحة " من " بنى عبد الدار " .

وهكذا تولى القيادة أكفأ قواد " قريش " وأمهرهم حنكة ودربة ودهاء ، مع كثرة العدد وقوة العُدَد .

وقد سجل الشعر العربى – وهو ديوان الأحداث – هذا الاستعداد الفاره

هذا " حسان بن ثابت " يترجم عن ذلك فيقول :

جمعتموهم أحابيشًا بلا حسب ∴ أئمة الفكر أغرتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت ∴ أهل القليب ومن ألقينه فيها !؟

ويعبر عنها " كعب بن مالك " بقوله :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ∴ أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصيبه ∴ ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

٤ – وسار الجيش الزاحف صوب المدينة .. وفى الطريق طاشت بعض العقول ، وحاولت – حين مرت على قبر أم النبى ﷺ – أن تنبشه إطفاء

للهيبهم ، وشفاء لغليلهم .. لكن بعض عقلائهم أبوا ذلك ؛ لئلا يستنوا للناس تلك السنة السيئة .. فما الرمس إلا وعاء الجسد الذابل .. وما الكفن إلا غطاء الطيف الباهت .

وفى أقصى الوادى عند " **أُحد** " ضربوا خيامهم وتركوا خيلهم ، ترعى كلأ المدينة ، ظلمًا وتحديًا وإمعانًا فى الطغيان .

تلك كلها قوى جُمِعَتْ ، وأجناد حُشِدَتْ ، لتضرب الإسلام ضربة القضاء عليه .

موقف الجبهة المسلمة بعد " بدر "

لم يؤثر هذا الحنق المكبوت من " قريش " على موقف القوة الإسلامية فى ثباته ورزانته ، بل إنها نظرت إليها على أنها ألاعيب صبيان ، وتنفسات

موتـورين .. ومـع ذلـك لـم يفتهـا أن تأخـذ الحـذر ، وتستعمل سلاحًا ماضيًا .. وسلميًا .. للفتك بهذه القوة الملحدة المسعورة .

إن غذاءها ووقودها المال .. وإذا ضعف المركز المالى لـ " قريش " فإنها قد تستسلم ، وقد تفكر فى الدعوة تفكيرًا آخر .. وعلى هذا فليضرب الحصار الاقتصادى حول مكة .. إن موقع المدينة مهم واستراتيجى ، فهى فى طريق تجارة الشام ، وأموالهم كلها من ربح التجارات .

ثم إن هناك مبررًا شرعيًا قويًّا ، فلسيدنا **محمد** ﷺ وصحبه أن يستولوا على أى قافلة لـ " قريش " ؛ إذ ترك المهاجرون أموالهم وديارهم .. وهذا المال سيستخدم ضدهم ، وسيوقد شعلة حرب لا يُعْلَم مداها ..

وإذن فمن دواعى السلم فى الجزيرة كلها إضعاف شوكة " قريش " ؛ لئلا تفكر فى العدوان .

سلاح الحصار الاقتصادى

بدأ - ﷺ - بعقد معاهدات مع القبائل : شمال وجنوب المدينة ، وعلى طريق الساحل .. بل إن بعض هذه القبائل قد أسلم وصار جنديًا من جنود الدعوة الإسلامية ، وعلى هذا كان **محمد** ﷺ سيد المنطقة كلها ، وصارت له حرمًا وحمى .

وفكرت " قريش " كثيرًا فى هذا الأمر الخطير ؛ إذ هو ضربة قاصمة لاقتصادها ، لا يمكنها أن تصمد له طويلاً .

وقد وصف " صفوان بن أمية " أثر الحصار الاقتصادى حين قال لقومه : " **إن محمدًا وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ،**

وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهُم ..
ودخل عامتُهم معه فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا فى
دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ،
وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف ،
وإلى الحبشة واليمن فى الشتاء !! " .

فأشار عليه " الأسود ابن المطلب " بقوله : " تنكب
الطريق على الساحل وخذ طريق العراق " .

غنيمة الكُدْر

وتجهز فعلاً " أبو سفيان وصفوان وحويطب بن
عبد العزى " وخرجوا بقافلة كبيرة يطلبون العراق بدلاً
من الشام .. وكان " نعيم بن مسعود " موجودًا فى
" **مكة** " وقدم " **المدينة** " فنقل ما سمع ، وبلغ ذلك
رسول الله ﷺ فأرسل " زيد بن حارثة " على رأس مائة

رجل لأسر القافلة ، ولحقها " زيد " عند ماء يقال له " الكدر " شمال شرق المدينة بنحو ١٢٠ كيلومتر فهاجمها وهرب رجالها وغنم المسلمون ما معهم ، وكانت قيمته مائة ألف درهم .

وبهذا قطع النبى **محمد** ﷺ الطريق الجديد على " قريش " .. وتم إحكام الحصار الاقتصادى حول مكة دفاعًا عن النفس وعن الدعوة ، وحفاظًا للسلام فى المنطقة .

نبل وعصبية

بينما رسول الله ﷺ وصحبه يعيشون فى سعادة النصر فى " **بدر** " و" السويق " و" الكدر " إذا بقريش تستعد للإجهاز على تلك القوة الناشئة المظفرة ، وتحرك الجيش فعلاً تجاه " **المدينة** " ، والرسول ﷺ لا

يعرف من أمر هذا الجيش شيئًا .. وهنا تبدو العصبية في نبلها الراشد على عم رسول الله ﷺ " العباس " الذى كان لا يزال على الكفر ، ولا يزال فى مكة ، لكنه كان يتمتع بنفس نبيلة منذ شب ، فكما كان نبيلاً حينما استوثق لابن أخيه فى بيعة العقبة ، بقى الرجل على وفائه إلى النهاية .. ها هو ذا يستدعى رجلاً من " بنى غفار " (ويقول اليعقوبى إنه من جهينة) ويسلمه كتابًا ليوصّله إلى رسول الله ﷺ ، بشرط أن يأتى " **المدينة** " فى ثلاثة أيام ، قبل أن تصلها " قريش " ؛ ليجد المسلمون فرصة للقاء هذا الجيش .. ووصل الرجل إلى رسول الله ﷺ وهو يهم بالخروج من مسجد " قباء " ودفع إليه الرسالة .. فقرأها " أبىّ بن كعب " على رسول الله ﷺ ، فاستكتمه الخبر وعاد إلى المدينة

حكمــة النبى

وفى كتمان الخبر حكمة وبعد نظر : ألا يجوز أن يكون مزورًا على " العباس " أو خدعة من " قريش " ؟ ثـم إن المنـافقين قـد يهتبلونهـا فرصـة فيثبطـون الهمـم ، ويفتّــون فـى عضـد المسـلمين ، وعلـى هـذا أرسـل الرسـول ﷺ " أنسًـا ومؤنسًـا " ابنـى " فضـالة " مـن الأوس .. يتعرفـان أخبـار " قـريش " .. وعـادا ليؤكـدا اقترابهما من حمى المدينة ، وزيادة فى الاستيثاق أرسل النبى ﷺ " الحباب بن المنذر " الخزرجى .. ثم " سلمة بـن سلمة " الأوسـى .. ورجـع الرسل جميعًـا يؤكـدون الخبر ، ويحملون نبأ عددهم وعدتهم ، وبات الصحابة يحرسون بيت رسول الله ﷺ حتى أصبح صباح **الجمعة ١٤ مـن شـوال مـن السـنة الثالثـة الهجريـة** .. فجمـع

الرسول أهل الرأى والخبرة ليستشيرهم فى الخطة الحربية .

مجلس الشورى

وبدأ المجلس بحديث رسول الله ﷺ قال[1] : « **رأيت الليلة فى المنام أن بقرًا يصرع ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا .. ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة** » فسُئل عن تأويلها ، فأول البقر الذى يصرع : بأن نفرًا من أصحابه يقتلون ، وأول الثلم أن رجلاً من أهل بيته يصاب ، وأول الدرع بالمدينة .

ثم قال ﷺ : « **إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا .. فإن أقاموا .. أقاموا بشر مقام ، وإن هم خلوا علينا قاتلناهم فيها** » .

---

(١) البدء والتاريخ للمقدس ، والحديث أخرجه الإمام ابن ماجه – تحفة الأحوذى ، " حديث حسن غريب " .

كان هذا رأى رسول الله ﷺ .. ومع أن الصحابة يوقنون أن رؤيا رسول الله ﷺ صدق ، وأن رأيه دائمًا على صواب .. مع هذا ينفسح المجال فى الإسلام للنقاش والتشاور ، لإقرار مبدأ الشورى فى الإسلام .

وانقسم المجلس إلى فريقين : فريق مع رسول الله ﷺ ويمثله معظم المهاجرين وبعض زعماء الأنصار .. أما شباب الأنصار المتحمس وبعض المهاجرين الذين ذاقوا حلاوة النصر فى " **بدر** " ومن فاتتهم تلك الغزوة (وكان فيهم " سعد بن عبادة والنعمان بن مالك ") فقالوا : " يا رسول الله إنا كنا نتمنى هذا اليوم .. اخرج بنا إلى أعدائنا لا يَرَوْا أنا جبُنّا وضعفنا " .

موقف المنافقين

هنا تطل الحية من جحرها ، فقد تنفست الصعداء في جو الخلاف .. إنها تود الصيد فى الماء العكر ، هنا

يظهر " عبد الله بن أبيّ بن سلول " رأس المنافقين .. وينضم إلى فريق رسول الله ﷺ .. لا حبًا فى رسول الله ﷺ ، ولا حبًا فى الدفاع عن المدينة .. ولكن لأن الأكثرية ضده .. فهو يحب أن تصطدم الآراء .. قال " ابن أبيّ " : " يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدوٍّ لنا قط إلا أصاب منا .. ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم .. فدعهم يا رسول الله ، إن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فقال " سعد بن عبادة " وجماعة من الأنصار : " إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبنًا عن لقائهم فيكون جراءة منهم علينا " ، وقال " الحمزة " : " والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة " ، وقال :

" أنس بن النضر " : " يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، والله لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع " .

وقال " النعمان بن مالك " : " يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها " ، فقال رسول الله ﷺ : « **ولمه ؟** » ، فقال : لأنى أحب الله ورسوله ، ولا أفر يوم الزحف " ، قال ﷺ : « **صدقت** » وقال رجل من الأنصار [1] : " إنى لا أحب أن ترجع **قريش** إلى قومها فيقولوا : حصرنا **محمدًا** فى صياصى " **يثرب** " وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لـ " قريش " ، وها هم أولاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذبّ عن حوضنا لم يُرع ، وإن قريشًا قد مكثت حولاً تجمع الجموع ، وتستجلب العرب من بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ،

---

(١) حياة محمد ، محمد حسين هيكل .

ثم جاءونا ، وقد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا .. أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا !؟ لئن فعلنا لازدادوا جرأة ، ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا .

هكذا احتد النقاش ، وأدلى كل بحجته وقدم برهانه .. والجميع يريد الإخلاص ما عدا المنافق " عبد الله ابن أُبىّ " .

مقارنة بين وجهات النظر

إذا كان لنا أن نقارن بين الرأيين .. فإننا نجزم بأن رأى رسول الله ﷺ أحكم وأصوب .. لا لأنه رسول الله ﷺ فحسب .. ولكن للفن العسكرى المحكم ، فإن جيوش مكة ليست من عنصر واحد ، بل من أحلاف

ومستأجرين كالأحابيش ، ولذلك لا تربطهم رابطة متينة ، بها يتعاونون على الصبر فى الحصار .. ومن هنا يستنتج رسول الله ﷺ أنهم لو تركوا فسيدب الخلاف بينهم تلقائيًا ، ولن تحتاج المسألة إلا لزمن .. وعلى فرض أنهم تماسكوا وانتظروا ، أو تجرءوا على المدينة ، فإن الدفاع يكون فيها أقوى وأصلب .. فالمسلم سيرى دينه وعرضه وأهله وسط الخطر فيدعوه ذلك للاستماتة فى الدفاع .. بجانب الصبيان والنساء .. وهؤلاء قوة لن تؤثر إلا فى داخل المدينة وتأثيرهم قوى فى الإيذاء ، وبأسلحة فعالة قد تفقد فاعليتها فى الميدان ، كالأحجار والأدوات .. ثم إن المعارك ستتعدد ، والميدان سيتسع على المشركين ، وهم مكشوفون لأهل المدينة ، على حين أنهم لا يرون عدوهم المختبئ فى المنازل وفوق الأسطح .

وكـان هـذا درسًـا للمسـلمين ، تعلمـوا منـه الخطـط الحربيـة الممتـازة ، فأفـادوا منـه فـى غـزوة " **الخنـدق** " حيث تركوا الأحلاف والأحزاب ، يقضـى بعضـهم علـى بعض ، وهم متحصنون بالخندق ناحية المدينة

ومع كل هذه الاعتبارات ، لم يشأ رسـول الله ﷺ أن يهدم قاعدة الحكم الشورى ، ولو كان رأيه الفرد أصوب وأسلم ، حتى لا تكون تلك نـواة للدكتاتوريـة الفرديـة فـى الإسـلام .. حتـى لـو خسـر الإسـلام أبطـالاً هـو أحـوج مـا يكون إلى جهدهم .. فإن ذلك هيّن بجانـب ترسيخ قاعدة الشـورى ؛ إذ هـو يبنـى لأجيـال ، وإذ هـو نبـراس وقـدوة لبنى الإسلام ، إلى أن يأذن الله للعالم بالفناء .

مبادئ الشـورى

رأى الرسـول ﷺ الأكثريـة تحبـذ الخـروج .. فنـزل على رأيهم .. وصلى بهم الجمعة ،ودخل منزله ، وأعانه

صاحباه أبو بكر وعمر على لبس لأمة الحرب .. وبينما هو يتجهز كانت صفوف المسلمين تتراص متأهبة للنضال ، وأحس سيدا الأوس " سعد بن معاذ وأسيد بن حضير " أن الجيش قد أساء الأدب مع رسول الله ، فقالا : " استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردو الأمر إليه " ، وهنا يقرر رسول الله ﷺ مبدأً آخر من مبادئ الشورى ، ما دام المجلس الشورى قد انفض . واتفقت الأكثرية على رأى ما ، فلا يجوز العدول عنا بأى حال ؛ لأن ذلك يؤدى الى اضطراب الأمور وفتور العزائم ، وضعف الهمم .. ثم بالضرورة إلى الفشل ، ولذلك يرد رسول الله ﷺ عليهم : « **ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه** »[1] ، ثم أوصاهم بالصبر والعزيمة .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، جـ٣ عن جابر بن عبد الله .

مدى قوة المسلمين وتنظيمهم

أخذ الرسول ﷺ يتفقد الصفوف ، فإذا به أمام ألف رجل .. فبدأ فى تنظيمهم على أساس القرابة والعصبية ، فذلك أدعى للتناصر ، إذ تجتمع أخوة الإسلام مع قرابة الرحم ، مع خوف العار أن يلحق بالقبيلة إذا هى انتكست .

وعقد ثلاثة ألوية : لواء الأوس لـ " أسيد بن حضير " .. ولواء الخزرج لـ " الحباب بن المنذر " .. ولواء المهاجرين لـ " علىّ بن أبى طالب " .

ثم سأل الرسول ﷺ : « **من يحمل لواء المشركين ؟** » **فقيل** : " **طلحة بن أبى طلحة** " من بنى عبد الدار (وكان قصىّ جدّ الرسول قد جعل لهم اللواء والحجابة والسقاية) **فقال** رسول الله ﷺ : « **نحن أولى بالوفاء**

منهم » .. وأخذ اللواء من " عليّ " ودفعه إلى " مصعب بن عمير " من بنى عبد الدار .

وكان فى الجيش مائة دارع ، وليس به سوى فرسين : فرس له ﷺ ، وفرس لـ " أبى بردة " .. واستعمل الرسول ﷺ على المدينة " ابن أم مكتوم " .. واستعمل " أبا خيثمة الحارثى " دليلاً للجيش ، وكلفه ألا يمر على المشركين ، ولا يبتعد عنهم ، حتى يختار الرسول ﷺ المكان المناسب للمعركة .

فى الطريق إلى " أُحد "

بينما يسير الجيش الإسلامى ، إذا بكتيبة خشناء تلاقى المسلمين ، فسأل الرسول ﷺ : « **من هؤلاء ؟** » قالوا : " **هؤلاء حلفاء ابن أبىّ** من اليهود " .. **فقال** ﷺ : « **وقد أسلموا ؟** » ، قالوا : " لا يا رسول الله " .. **فقال** :

« **مروهم فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين** »[1] .. هكذا ، فالشرك ليس له همّ إلا المادة ، والذى تحركه المادة ليس كمن تحركه العقيدة والفكرة .. وإذن فلا فائدة من هذه الكتيبة .. بل قد تكون وبالاً على المسلمين .

وحينما وصل الجيش إلى جبلى " الشيخين " عسكر هناك ، وبدأ الاستعراض الرائع .. فحصهم رسول الله ﷺ فحصًا دقيقًا ، فأخرج من بين الصفوف سبعة عشر غلامًا لا يطيقون النزال .. فقيل له : " إن **رافع بن خديج** رام ماهر " – بالرغم من أن عمره لا يتجاوز أربعة عشر عامًا – فقبله رسول الله ﷺ لتلك المهارة الفنية .. وهنا تثور روح الجندية فى زميله " سمرة بن جندب " **فيقول** : " أجزت غلامًا ورددتنى ،

---

(١) أخرجه الإمام الطبرانى – مجمع الزوائد – جـ ٥ – كتاب الجهاد – باب الاستعانة بالمشركين .

ولو صارعنى لصرعته ! " ، فيقرر الرسول ﷺ المبدأ الثانى لقبول الجندية : **وهو اللياقة البدنية** .. فيسمح للغلامين أن يتصارعا ، وصدق " سمرة " وصرع صاحبه ، فأجازهما معًا .

فتنة النفاق قبيل المعركة

النفاق مرض قلبى ينشأ من ضعف الثقة بالنفس ، واعتمادها على غيرها ، فهى خائفة مضطربة دائمًا .. متقلبة باستمرار .. ترى مصلحتها فى المال فتلجأ إليه .. وتراها فى ممالأة العدو فتبيح له الوطن .. إنهم النفعيون الأنانيون ، الإمّعات فى كل جماعة إنسانية ظهرت أو ستظهر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولَكَمْ قاست الأمة الإسلامية فى تاريخها الطويل ، من هؤلاء المجرمين .. وبخاصة فى أوقات الحروب :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾[1] وأى شىء أخطـر على الجيش من الفتنة ؟ .. تقتـل فيـه الـروح المعنويـة ، وتدعـه فريسـة للأوهـام والوساوس .

إنهم مسلمون أمام المسلمين .. وقد يثق فيهم من لا يعرف خباياهم ، وقد يعدّ رأيهم نصيحة وإخلاصًا ، وقد مر بنا كيف كان " ابن أبىّ " يبغى الفتنـة للمسلمين فـى مجلـس الشـورى ، لكـن حـزم القيـادة سـد عليـه كـل الثغرات ، واضـطر للخـروج مـع الجـيش الإسـلامى ، مكره الإرادة ، مرعوب الفـؤاد ، وحين وصـل الجـيش إلى " الشـوط " فى وقت السحـر .. وقف هذا اللعين

---

(١) سورة التوبة – آية رقم ٤٧ .

ينــادى : " أطــاع الـولـدان ومـن لا رأى لـه .. أطـاعهم وعصـانى .. عـلام نقتل أنفسنا ؟ " ، هكذا يطفو النفاق على لسانه بعد أن تمكن من قلبه !!

وانفصل " ابن أبىّ " بثلاثمائة من الجيش .. وبينما هم عائدون عزّ على " عبد الله بن عمرو بن حرام " الخزرجى ، فتبعهم قـائلاً : " أناشـدكم الله فـى حـرمكم ونبيكم بعد مـا حضر العدو (وكأنمـا كـان " عبد الله " يجيب على السؤال الخبيث : " عـلام نقتل أنفسنا ؟ ") ورد المنافقون المنسحبون : " لو نعلـم أنكم تقـاتلون لمـا أسلمناكم .. ولكنا لا نرى أنه يكـون قتـال " ، فقـال لهم : " أبعدكم الله فسيغنى الله عنكم نبيّه " .

خيانـة خسيسـة فـى وقـت عصيب !! لقد خيّل إليهم أن " قريشًـا " ستقضى على محمد وينفرد " ابن أبـىّ " بسلطة يثرب .. وحين نستعرض آيات القرآن الكريم فـى " **أُحد** " نجـدها تحـكى تلك المناقشـة بين " ابن أبىّ "

و " ابن حرام " فتقول : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾[١]

وقد تأثر بتلك الفتنة طائفتان من المسلمين[٢] ، فهمّت " بنو سلمة وبنو حارثة " أن تعودا لولا أن تداركهم الله بلطفه ، فثبت أقدامهم .. وسجل القرآن ذلك فقال : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣] .

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٦٧ .
(٢) البدء والتاريخ .
(٣) سورة آل عمران – آية رقم ١٢٢ .

وسار الجيش الإسلامى[1] بدليله " أبى خيثمة الحارثى " فاقتضت المصلحة العامة أن يمر بحائط رجل ضرير من بنى حارثة يسمى " مربع بن قيظى " وكان منافقـًا ، فجعل يحثو التراب فى وجه الجيش ويقول : " لو أعلم أنى لا أصيب غيرك يا محمد لضربت وجهك " ، فأراد القائد المسئول عن اللواء وهو " أسيد بن حضير " أن يقتله ، فمنعه رسول الله ﷺ قائلاً : « **اتركوه إن هذا الأعمى أعمى البصر أعمى القلب** » ، فضربه " سعد بن زيد " بقوس فشجه .

وإنها للفتة كريمة فى رفض قتل هذا المنافق ، فالإسلام لا يشتهى الدماء .. كما أن قتله قد يثير فتنة فى بنى حارثة ، ومع ذلك فليس منه ضرر للجماعة .

---

(١) الكامل لابن الأثير .

تبوىء المقاعد

وصل المسلمون إلى جبل " **أُحد** " (على بعد ٥ كيلومترات من المدينة) ، واختار الرسول ﷺ المكان المناسب عند شعب الجبل فى " عدوة الوادى " ، بحيث جعل الجيش ظهره إلى أصل الجبل .. وبذلك تبوأ الجيش أحصن بقعة ملائمة ، على بعد ملائم ، بحيث لا تكون المعركة قريبة من المدينة ، فتتحول إلى ميدان حرب ، ولا بعيدة عنها فتتقطع المؤن .

وصلى الرسول ﷺ الصبح بالمسلمين صفوفًا ، عليهم سلاحهم .. وقام خطيبًا فيهم يحثهم على أداء الواجب مخلصين .. ثم وزع كل جندى على موقعه .. ونظم كل شىء فى الجيش .. وعوض النقص فى الفرسان بأن بوأ خمسين راميًا بالنبل فوق الجبل وخلف الجيش ، وأمّر عليهم " عبد الله بن جبير " الأوسى ،

وشدد الوصايا والتعليمات بالثبات فوق الجبل ، قائلاً :

« فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، وإنا لا نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم ، اللهم إنى أشهدك عليهم » .

هكذا .. بكل هذه التأكيدات الحازمة التى تحملهم تبعة النصر والهزيمة .. وبكل هذا أدى الرسول ﷺ واجب التنظيم المحكم الذى يجعل النصر حقيقة محتومة متساوقة مع سنة الأسباب .. وبذلك يشيد القرآن ، حيث يقول : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

ثم يرمق رسول الله ﷺ نعرة عاطفية فى بعض النفوس ، قد تكون خطرًا على نظام الجيش كله : هذه خيول المشركين ترعى فى زروع يثرب وسعفها ..

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٢١ .

والمسلمون يرونها فيتحرقون غيظًا وشوقًا للمسارعة في النزال .. وهنا يصدر الرسول ﷺ أمره الحازم : « **لا يقاتلن أحد حتى نامر بالقتال** » .

هذه احتياطات رسول الله ﷺ ، وتنظيماته ، واستعداداته ، من الناحية المادية ، قدر الطاقة ، وقدر ما أسعفه به الوقت القصير .. أما الناحية المعنوية ، فكانت متأججة مشتعلة بحكم العقيدة الصلبة ، والإيمان الحي ، الذي يثير في ضمير المسلم أنه قد باع نفسه وكل ما يملك ، ليكسر طاغوت الظلم ، ويحطم أغلال القلوب ، ويمنح الحرية والنور لكل العالمين .

المعركة

لعلنا قد لمسنا مما سبق كيف كانت " قريش " هي المعتدية ، وهي الحانقة ، المتحدية ، المصممة على

استئصال شأفة المسلمين .. وإن هذه الروح الآثمة لتبدو واضحة فى كلمات " أبى سفيان " وهو يهدد " بنى عبد الدار " – قبيل بدء المعركة – بأن يسلبهم اللواء : " يا بنى عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد علمتم ، وإنما تؤتى الناس من قبل رايتهم ، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه " ، ويجيبونه بإصرار : " سترى ما نصنع " ، وبإشارة خفية تدق الطبول وينطلق صوت النساء :

ويهابنى عبد الدار .. ويها حماة الأدبار .. ضربًا بكل بتار

ثم ينحنى الصوت تجاه الجيش كله ، يدوى فى المسامع بما يثير من الغل الدفين :

نحن بنات طارق ∴ نمشى على النمارق
مشى القطا البوارق ∴ والمسك فى المفارق
والدر فى المخانق ∴ إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق ∴ أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

ويسمع الرسول ﷺ ألحان الشيطان تعلو فى الوادى فيلجأ إلى ربه قائلاً : « **اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبى الله ونعم الوكيل ، اللهم لا يَغْلُنَّ علينا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك** » .

مشهد تتحرك فيه خلجات الأنفس : صنم من حجر يعلو فوق هودج " قريش " ، وأصوات الرجال تتبعث : " يا لعزى .. يا لهبل !! " ، وأصوات النساء تنطلق بألحان الإغراء والإثارة .

وفى الواجهة الأخرى يعتصم المسلمون .. ومعهم نبى الله ﷺ .. بالسند المتين ، والملجأ الحصين ، فى ثقة ويقين ، يجأرون إلى الله ألا تعلو الخرافة على الحقيقة ، وأن يكتسح طوفان الحق زبد هذا الباطل .

وهنا يريد " أبو سفيان "[١] أن يبث الخذلان فى نفوس الأنصار ، فينادى رسوله فيهم : " يا معشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم ؛ فإنه لا حاجة لنا بقتالكم " ، وإذا بالأنصار يرمقونه بعين السخرية والازدراء .

ويطلّ " أبو عامر " الفاسق من صفوف " قريش " - وهو من الأوس - فيقول : " يا معشر الأوس أنا أبو عامر " ، فأجابوه : " فلا أنعم الله بك علينا يا فاسق " ، وفشلت كل محاولات الدس والتخذيل بين المسلمين .

وحتى هذه اللحظة ، تتوهم " قريش " أنها تصطدم بأشخاص ، وتنسى أنها تمثل جانب الظلام فى صدام المبادئ الذى تمتد جذوره إلى بدء الخليقة .. والذى قدر له أن يظل حتى يأذن الله للعالم بالفناء .

---

(١) تاريخ الطبرى .

وتطاولت أعناق النسور والغربان ؛ شوقًا إلى النهش من الأشلاء .. ونعب النذير في رأس حامل لواء قريش " طلحة بن أبي طلحة "[1] ، فبرز من الصف وقال : " يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجله سيفي إلى الجنة ، أو يعجلني سيفه إلى النار ؟ " .

وتقدم " عليّ بن أبي طالب " ﷺ فدوخه بجولاته ، ثم هوى عليه بالسيف ، حتى نزع رجله ، فسقط

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ويذكر ابن هشام : أنه " أبو أسعد " أخوه ؛ ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية : أن طلحة كان يتحدى المسلمين بالمبارزة ، فلم يقم له أحد ، حتى فكر الرسول ﷺ في منازلته ، ثم قام الزبير وبارزه وقفز إليه على جمله وهوى به صريعًا بلا حراك ، فقال الرسول ﷺ فرحًا مغتبطًا : « **لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير** » .

مكشوف السوءتين يناشد عليًّا بالله والرحم أن يتركه ، فتركه مطروحًا على الأرض ، بأخلاق النزاهة والفروسية التى تربى عليها " علىّ " فى مهد النبوة .

وقبض الرسول ﷺ على سيف ورفعه بكلتا يديه قائلاً : « **من يأخذ هذا السيف بحقه ؟** » فقام رجال منهم " أبو بكر " و" الزبير " ، فأمسكه عنهم حتى قام " أبو دجانة " - سماك بن أوس بن خرشة - فقال : " وما حقه يا رسول الله ؟ " ، قال ﷺ : " أن تضرب به العدو حتى ينحنى " ، قال : " أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه ، فعصب رأسه بعصابة حمراء سماها بعض الأنصار " عصابة الموت " وأخذ السيف ، وجعل يتبختر بين الصفوف وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى حبيبى ∴ ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكبول ∴ أضرب بسيف الله والرسول

فقال الرسول ﷺ : « **تبختر إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى مثل هذه المواطن** » ، والتحم الجيشان ، وحمى الوطيس ، واتخذ المسلمون شعارهم " أَمِتْ أَمِتْ " وأمعن " أبو دجانة " فى الناس ، فما لقى أحدًا إلا قتله ، حتى رأى إنسانًا يخمش فى المسلمين خمشًا شديدًا .. فصمد له ، فلما حمل عليه بالسيف ولْوَل فإذا بها " هند بنت عتبة " زوج أبى سفيان .. فأكرم سيف رسول الله أن يُضرب به امرأة .

هكذا .. ولو كانت المرأة " هندًا " ولو كانت تخمش فى الناس !! ، فهى امرأة ، وهى أضعف من أن يضربها " أبو دجانة " بسيف رسول الله ﷺ .. إنها النزاهة التى تعلّمها المسلمون حتى فى مواقف الطعان .. إنهم يأبون أن يقاتلوا من ليسوا أندادًا .

وحمل المسلمون على لواء المشركين ، فأجهز " سعد بن أبى وقاص " على " أبى سعد بن طلحة "

حين تسلم اللواء .. ورمى " عاصم بن ثابت " " مسافع بن طلحة " فألقاه صريعًا .. ثم جندل أخاه " كلابًا " فأمسك اللواء " الحارث بن طلحة " فقتل .. ثم حمله " الجلاس بن طلحة " فصرعه " طلحة بن عبيد الله " ، فتناوله " أرطأة بن شرحبيل " فتصدى له " عليّ بن أبى طالب "[1] حتى جندله ، ثم " شريح بن قارظ " فقتل ، فحمله " صؤاب " وهو غلام حبشى لـ "بنى أبى طلحة " وكان آخر من أخذه منهم .. فقاتل حتى قطعت يداه ، وفى ذلك يقول حسان :

فخرتم باللواء وشر فخر ∴ لواء حين رُدّ إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيها لعبد ∴ من الأمِ مَن وطى عفر التراب

وأصبح لواء المشركين ملقى لا يجسر عليه أحد .. وقصد " حنظلة " الغسيل " أبا سفيان " حتى علا مفرق

---

(١) فى البداية والنهاية لابن كثير : أنه الحمزة بن عبد المطلب .

رأسه لولا أن اغتاله من الخلف " شداد بن الأسود الليثى " ، وكان يقال له : " ابن شعوب " .

وبينما يشتد لهيب النزال ، ويمتد لسان السيوف ، إذ تاقت نفس " وحشى " إلى الحرية .. لكنه يعلم أن حريته فى قتل أسد الإسلام " حمزة بن عبد المطلب " ، كما وعده سيده ، وكما تحرضه " هند " حين تمر عليه وتقول له : " وَىْ أبا دسمة ، اشْفِ واشتَفِ " ، وتزيد من إثارته فتهديه قلادتها وقرطها مقدم أجره الثمين .. وأمام هذا الإغراء استسلم " وحشى " ، ولندعه يشرح بنفسه كيف قتل سيد الشهداء .. قال : " والله إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه وهو قائم فى عرض الناس كالجمل الأورق ، وسيفه ما يقوم له شىء .. إذ تقدمنى إليه **سباع بن عبد العزى** ، فقال له **حمزة** : هلمّ إلىّ يا ابن مقطعة البظور .. فضربه ضربة فكان ما أخطأ رأسه .. وهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها وكانت

لا تخطئ ، دفعتها إليه فوقعت فى (ثنته) حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى فغلب فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى منه ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم تكن لى بشىء حاجة غيره .. وإنما قتلته لأعتق " .

وأتت " هند " فبقرت بطنه ، وانتزعت كبده ، وجعلت تلوكها حتى انفجرت مرارته فرمتها ، ومثلت به شر مثلة ، حتى جعلت من أمعائه عقدًا تلبسه .

وهكذا تتجرد " قريش " من كل إنسانية ، وتنحط إلى درك الوحوش الكاسرة ، ولو صح لنا أن نقارن بين هذا الموقف وبين موقف " علىّ " أو " أبى دجانة " السابقين ، لم نجد سوى صلة النقيض بالنقيض ، والملائكة بالمردة الشياطين ، ولرأينا أن البون شاسع بين هوة الكفر وقمة الإيمان !

وعلم الرسول ﷺ بمصرع عمه ، فوقف مكلومًا عليه ، ومنظر المثلة بين يديه ، وقال : « **رحمة الله عليك .. لقد كنت فَعولاً للخير ، وَصولاً للرحم ، لن أصاب بمثلك أبدًا ، وما وقفتُ موقفًا أغيظ إليّ من هذا**[١] **، لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن منهم بثلاثين** » ، وكبّر عليه خمسًا وسبعين تكبيرة ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٢] ، فصبر رسول الله ﷺ ونهى عن المثلة ، وصارت تشريعًا متبعًا في نظام الحروب الإسلامية ، مهما بدا من وحشية الأعداء وخستهم واعتدائهم على الحرمات الإنسانية .

---

(١) تاريخ ابن خلدون واليعقوبي .
(٢) سورة النحل - آية رقم ١٢٦ .

وبعد قتل " حمزة "[١] علت " هند " صخرة ، وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر ∴ والحرب بعد الحرب ذات سعر
شفيت نفسي وقضيت نذرى ∴ فشكرُ وحشيّ عليّ عُمرى
حتى تَـرِمّ أعظُـمى فى قبرى

وأجابتها " هند بنت أثاثة " بقولها :

جزيت فى بدر وبعد بدر ∴ يا ابنة وقّـاع عظيم الكفر

وأجابها حسان بقوله :

لعن الإله وزوجُها معها ∴ هند الهنود طويلة البظر

ورغم نكبة " حمزة " الفاجعة ، لم تتراجع صفوف المسلمين ، وأقدم " الزبير بن العوام " نحو " خالد بن الوليد " ، وخيالته فشتت شمله ، ورده مدحورًا .. فهجم " خالد " على الرماة فوق الجبل فردوه ، واضطربت صفوف المشركين ، وهربت نساؤهم مصعدات فى الجبل ، وولوا الأدبار .

---

(١) البدء والتاريخ للمقدس .

يحدث " الزبير " ابنه " عبد الله " فيقول : " والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم (سيقان) **هند بنت عتبة** وصواحبها مشمّرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير " .

وروى " الإمام أحمد "[1] : " لما كان يوم **أُحد** ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : « **استووا حتى أثنى على ربي** ﷻ » ، فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال : « **اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت .. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم حبّب إلينا الإيمان**

---

(١) مسند الإمام أحمد - جـ٣ ، عن جابر بن عبد الله .

وزيّنه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب .. إله الحق » .

النهاية المؤسفة

قد يجد القارئ نفسه فى محيط يموج بالأنوار ، وتنتشر فى أجوائه الأشعة الهادية .. ثم يلعب صبى بأسلاك النور فيقع خلل مفاجئ يقطع التيار ، فإذا المصباح يعتم ، ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم .. كذلك كان التحول المستنكر الذى قلب سير الحوادث فى " **أُحد** " .. لحظة من لحظات الضعف الإنسانى

عرضت لفريق من الجند ، فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله .. وضاعت في ساعة نزق كل المكاسب التي أحرزتها البطولة الفذة ، والتضحية الرائعة .

ولا غرابة ، فخطأ الفرد يقع على المجتمع عبؤه .. وكل مسلم على ثغرة من ثغرات الإسلام ، فلا يؤتين الإسلام من قبله : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1]

المعصية هي سبب الهزيمة

إن كل ما حدث هو ما كان يتخوف رسول الله ﷺ منه ، حين كرر وصاياه ، وشدد تعليماته على الرماة ألا

(١) سورة الأنفال – آية رقم ٢٥ .

يبرحوا أماكنهم ولو تخطف الطير المسلمين ، غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بتلك التوصيات !!

فما أن رأى الرماة نساء " قريش " يهمن في الجبل ، والرجال يُولّون الأدبار ، والغنائم تزحم الوادى .. حتى غادروا مواقعهم هابطين بغية جمع الأسلاب ، لكن قائدهم " عبد الله بن جبير "[1] – وهو الذى اختاره الرسول ﷺ لهذه المهمة الخطيرة – ناداهم : " أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ " ، قالوا : " والله لنأتين الناس ولنصيبن من الغنيمة " ، قال " عبد الله " : " لا أجاوز أمر رسول الله " ، قالوا : " لم يرد هذا قد انهزم المشركون " .

وثبت " عبد الله " ومعه نفر يسير دون العشرة .. وكان " خالد بن الوليد " محسورًا بهزيمته من " الزبير "

---

(١) فقه السيرة للإمام/ محمد الغزالى .

فما أن شاهد هذا الانسحاب ، حتى اهتبل الفرصة على عجل ، ولوى أعناق الخيل ، واستأصل " ابن جبير " ومن بقى معه ، وانقض على المسلمين من الخلف ، من حيث لا يحتسبون .

ورأى الفارون[١] بوادر هذا التغير الطارئ ، فعادوا حتى إن امرأة تسمى " عمرة بنت علقمة " الحارثية ، هى التى رفعت لواء " قريش " من التراب ، وثاب المشركون إلى رايتهم ، وأحيط بالصحابة من الخلف والأمام ، ووقعوا بين شقى الرحى .

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شدهوا لما حدث حتى قتل بعضهم الصحابى الجليل " اليمان " والد " حذيفة " خطأ .. لكنهم صمدوا للنزال بحرارة رائعة .. وإن كان هدفهم قد تغير إلى محاولة

---

(١) فقه السيرة للإمام/ محمد الغزالى .

النجاة من أى طريق يُخلِّصهم من هذا المأزق العضوض .. واستشهد الكثير وهم يحاولون شق الطريق .

وانقطع الاتصال بين القائد والجيش ، ولا أخطر من هذا الانقطاع ، تنهار به الروح ، وتكثر الإشاعات والأوهام ، ولا تجمع الجيش خطة واحدة .

معاناة رسول الله ﷺ

وبلغت الشدة أن خلص المشركون قريبًا من رسول الله ﷺ .. ورماه " عتبة بن أبى وقاص " (وقيل " عبد الله بن قمیئة ")[1] بحجر كسر أنفه ورباعيته ، ودخلت حلقتان من المِغْفَر فى وجنته ، وشجه فى وجهه ،

(١) البدء والتاريخ .

فأثقله الألم وتفجر الدم من وجهه الشريف .. فأكب عليه " أبو عبيدة " يعالج انتزاع الحلقتين بفمه ، فما خلصت من لحمه حتى سقطت معها ثنيتاه ، ونزف الدم الغزير ، فقام " مالك بن سنان الخدرى " (والد أبى سعيد) فمص الدم من وجه رسول الله ﷺ ، **فقال ﷺ** : « **من مس دمه دمى لم تمسه النار** » .. وأسرع " علىّ بن أبى طالب " بماء يغسل الدم المراق .. لكن الماء جعله يزداد .. فأتت فاطمة الزهراء بجزء من حصير فحرقته ووضعته موضع المغفر ، فتوقف النزيف .

وبينما يسير الرسول ﷺ ، إذا به يقع فى حفرة من الحفر التى صنعها " أبو عامر " الفاسق ، ليقع فيها المسلمون .. فأخذ " علىّ بن أبى طالب " بيد رسول الله ﷺ ، ورفعه " طلحة بن عبيد الله " حتى استوى قائمًا .

روى "مسلم" أن رسول الله ﷺ[1] أُفرد يوم " **أُحد** " فى سبعة من الأنصار ورجلين من " قريش " ، فلما أرهقه المشركون ، قال ﷺ : « **من يَردُّهم عنى وله الجنة ؟** » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم أرهقوه ، فقال ﷺ : « **من يَردُّهم عنى وله الجنة ؟** » .. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما أنصفَنا أصحابُنا** » (يعنى من فروا وتركوه) وفى رواية أخرى قال ﷺ : « **لا يفلح قوم خضّبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم !؟ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون** » .

إشاعة قتل النبى ﷺ وما ترتب عليها

وأشاعت " قريش " أن **محمدًا** قتل .. وسرت تلك الإشاعة فى المسلمين ، فولى منهم الكثير ، وكان من

---

(١) فقه السيرة .

بينهم " عثمان بن عفان وعثمان بن أبى عقبة " ، فنادى رسول الله ﷺ : « **إلىَّ عبادَ الله .. إلىَّ عبادَ الله** » ، قال " كعب بن مالك " : " كنت أول من عرف رسول الله ﷺ عرفته بعينيه تزهران من تحت المغفر .. فصحت : أبشروا أيها المسلمون .. هذا رسول الله ﷺ " .. فأشار إليه رسول الله ﷺ أن كف عن هذا .

وثاب المسلمون إلى نبيّهم ، فاجتمع حوله ثلاثون رجلاً من صحبه الأبرار .. وترسوا ظهورهم حوله ، غير أن المشركين عادوا فهاجموهم .. ووقف " طلحة ابن عبيد الله وسهل بن حنيف " ، فأصيب " طلحة " بسهم فى يده فشلها ، وقاتل " علىّ بن أبى طالب " قتالاً مريرًا دون رسول الله ﷺ ، حتى أصيب ببضع عشرة طعنة ، سقط منها على الأرض أربع مرات .. وتلقى " أبو دجانة " النبل فى ظهره ، وفى رأسه ، وترس بنحره ، وبوجهه دفاعًا عن رسول الله ﷺ .. ولم يسلم

" أبو بكر وعمر " من الجراح ، وأقبل " أُبىّ بن خلف الجمحى " على النبى ﷺ ، وكان قد حلف أن يقتله ، وأيقن أن الفرصة سانحة ، فجاء يقول : " يا كذاب أين تفرّ ؟ " وحمل على الرسول ﷺ بسيفه ، فقال الرسول ﷺ : « **بل أنا قاتله إن شاء الله** » .. وطعنه الرسول ﷺ فى جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور .. فلم يلبث إلا يومًا ثم مات .

وكانت نكبة عمت كل مسلم فى الميدان .. عند ذلك رأى المشركون أنهم انتصروا وأخذوا بثأرهم ، فبدءوا يعدون العدة للرحيل .

وصعد " أبو سفيان "(١) على الجبل وصرخ بأعلى صوته : " أُنعِمَتْ فعال ، وإن الحرب سجال ، يومٌ بيوم أعلُ هبل " ، فقال ﷺ : « **قم يا عمر فاجبه** » ، فقال :

---

(١) نبى البر .

" الله أعلى وأجل .. لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار " .

فناداه " أبو سفيان " ، فاستأذن الرسول ﷺ وذهب إليه ، فقال له : " أنشدك الله يا عمر أقتلنا **محمدًا ؟** " قال عمر : " اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن " قال : " أنت عندى أصدق من **ابن قميئة** وأبر " ،ثم نادى " أبو سفيان " : " إن موعدكم **بدر** العام المقبل " ، **فقال** رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : " قل : نعم .. هو بيننا وبينك موعد " ، ثم بعث رسول الله ﷺ " علىّ بن أبى طالب " وراءهم وقال له : « **اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون " مكة " ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون " المدينة " ، والذى نفسى بيده .. لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم** » ، **فخرج** " علىّ " فوجدهم يمتطون الإبل ويتجهون إلى " مكة " .

وهكذا حتى فى أعسر وقت وأعصبه .. يحتاط الرسول ﷺ ، ويتفرس ويتخوف ، وينتصر على شعور الضعف والهزيمة .. وهكذا تكون القيادة الراشدة .

تصوير القرآن الكريم للمعركة

بعد أن عرفنا ما حدث تاريخيًا فى هذه الغزوة ، نقرأ ما نزل فيها من كتاب الله ، فنلمس فيه أسلوب الطبيب .. يبدأ الحديث بالتأسية والمواساة ، تاركًا أسلوب العتاب مؤقتًا – أو التنديد بالخطأ – لأنهم فى أسى وألم .

وعلاج المصدور لا يكون بتحميله الخطأ .. عكس المنتصر .. فالقرآن الذى يلوم المسلمين فى " بدر " حتى يقول لهم : ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [(١)] ، نراه هنا يذكرهم بنصر " بدر " حتى تتراءى صور النصر قبل أن يطل شبح الهزيمة : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [(٢)] ، ويستطرد فى الحديث عن " بدر " وعن معونة الله لهم فيها : ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [(٣)] .

---

(١) سورة الأنفال – آية رقم ٦٨ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٢٣ .
(٣) سورة آل عمران – آية رقم ١٢٤ ، ١٢٥ .

إن مع الهزيمة نصرًا ، ومع العسر يسرًا .. ومازلتم الأقوياء إن تمسكتم بالإيمان : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] .

ثم إن الأمر لو وضع فى ميزان الحقيقة والواقع لتبين أنكم أنتم المنصورون : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾[2] (فى آخر المعركة) ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[2] (فى أولها) وما زلتم تتمتعون بنصر " **بدر** " لم يشوهه شىء .

ثم إن الهزيمة ليست عيبًا ، إنها سنة الكون ، يوم لك ، ويوم عليك : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٣٩ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٠ .

إن الهزيمة تطهر المؤمنين ، وتسعد الشهداء بالأصطفاء والاختيار .. وإذن فمداولة الأيام بين الناس لتلك الحكمة : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [1] .

والمؤمن حين يتميز بإيمانه ، لابد من ابتلائه وتمحيصه ليدخل الجنة عن جدارة واستحقاق : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [2] .

ثم ما لكم تقهقرتم هكذا ؟ مم تخافون ؟ أمن الموت ؟! ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٠ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٤١ ، ١٤٢ .

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[1] .. ولماذا تتعلقون بالأشخاص .. هل قال لكم نبيكم : إنه سيظل حيًا ؟ .. أو قال لكم : إن به جزءًا إلهيًا يحفظه من أذى البشر ؟ إن محمدًا بشر ، وسيموت ككل البشر .. فهل تكون نتيجة موته أن تنقلبوا على أعقابكم ؟!! إنكم إذا انقلبتم فلن تضروا إلا أنفسكم : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2] .

وهكذا يبدأ القرآن الكريم تأنيب من فر حين سمع إشاعة قتل النبي ﷺ .. إن أي نفس لا تموت هكذا اعتباطًا بلا قصد إلهي ، وإرادة عليا : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٣ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٤ .

إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ ﴾ (١) .

وإنكم لستم أول من قاتل مع نبى .. إن أبرارًا كثيرين قاتلوا مع الرسل السابقين ، فما ضعفت أرواحهم وما ذلوا لأحد ، بل ظلوا شامخى الأنوف ، يفاخرون بأنهم جند الحق : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ۞ فَـَٔاتَىٰهُمُ

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٥ .

ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] .

ثم يقرر القرآن الكريم بعض السنن الكونية ليتعلم منها المسلمون :

١ – إن هدف أهل الباطل لن يرضى بأقل من القضاء التام على أهل الحق : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾[٢] .

٢ – إن الله يدافع عن أهل الحق بسلاح بتار ، هو إنزال الرعب فى قلوب أعدائهم ، وهو سلاح لا يتوافر

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٦-١٤٨ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٤٩ .

لأحد غير الله : ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[(١)] .

٣ – دولة الباطل إلى اضمحلال وفناء : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾[(٢)] .

٤ – لن ينال الباطل من الحق شيئـا : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥١ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٢٧ .
(٣) سورة آل عمران – آية رقم ١٧٦ ، ١٧٧ .

بعد تلك التهدئة لنفوسهم ، والتأسية لجراحاتهم ، يسلك القرآن الكريم مسلكًا آخر فى التأنيب ، وتوضيح الأخطاء .. إن الله لم يخلفكم نصره .. أنتم سبب الهزيمة ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ، هكذا فالعصيان والتنازع وحب الدنيا ونسيان الهدف .. هذه بعض عوامل الهزيمة ، بالإضافة إلى سوء الظن بالله .. لقد قال بعض المنافقين : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٢ .

﴿ قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾[(١)] ، أما المؤمنون ، فالفرار يوم الزحف وترك المصابرة حتى النهاية بالنسبة لهم عار كبير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾[(٢)] ، ووقعوا فى حمأة المعصية ، ولم يرض الله لهم أن يستمروا على ذلك : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[(٢)] .

إن منظركم حين الفرار ، منظر كريه لا يليق بأصحاب الدعوات الكبرى ، وبخاصة فى الوقت الذى يناديكم فيه رسول الله ﷺ أن تعودوا إليه : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٤ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٥ .

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١] .

وإذن فهذا الغم الذى أصابكم كان مقصودًا به رسوخ الإيمان عندكم بأن : ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم .. فإن أمور القدر تجرى بميزان وحكمة ، وقصد وإرادة .. وتلك حقيقة الإيمان الذى تدعون إليه .. إن الله ليعلم خبيئة النفوس ، ويعلم أن منكم من قوى إيمانه حتى شكر الله فى الضراء ، كما يشكره فى السراء ، واطمأن لفعل القدر .. وهؤلاء قد أنزل الله عليهم الأمن ؛ لأنهم آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. ومنكم آخرون نفوسهم طلعة جشعة ، لا يثقون فيما تأتى به الأقدار ، ويجادلون فى البدهيات محاولين

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٣ .

زحزحة الإيمان من القلوب : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [1] .

ويرتد السياق فى القرآن الكريم يحذر المسلم أن يتخذ موقف الضال التائه الملحد .. فالفرق الجوهرى

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٤ .

بينهمـا أن المسـلم يطمـئن دائمًـا لمـا تـأتي بـه السـماء .. يؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، لا يتعلل بالقدر ، ولا بـ " لو " فإن " لو " عند المسلم تفتح عمل الشيطان : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ (١)

إن المسلم لا يخاف القتل ، بل يعده غاية المنى إذا كان في سبيل الله ؛ إذ سيجد بعده في دار البقاء نعيم الأبد : ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ (٢) ، والموت والقتل كلاهما

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٦ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٧ .

واحد : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[(١)]

ويسترجع القرآن الكريم ذكرى التشاور حين تحمست الأكثرية للخروج مع ما فيه من خطر ، وحين نزل النبى ﷺ على رغبتهم ووافق على الخروج بحصافة القائد ، الذى يرى عن بعد أن استبداد الفرد بالأمر – ولو كانت خطته أسلم – قد يؤدى إلى انفضاض الجند ، وانفلات القيد : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[(٢)]

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٨ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٥٩ .

ومهما يكن من شيء فإن النصر بيد القادر المقتدر:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

ويوجه القرآن الكريم كلامه إلى من مالوا للدنيا وتركوا المواقع .. ما الذى كان يقلقكم على الغنائم ؟ هل اتخذ الرسول سابقًا من الغنيمة لنفسه شيئًا غير حقه ؟ هل جار فى التقسيم ؟ ماذا يخيفكم إذن ؟ إنه ليس من طبيعة الأنبياء ذلك : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٦٠ .
(٢) سورة آل عمران – آية رقم ١٦١ .

اذكروا النعمة الكبرى من الله أن هداكم للإيمان .. وأرسل فيكم رسولاً منكم يعلمكم ويزكى نفوسكم : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [(١)] .

إن القرآن الكريم – فى سياقه كله – يحرص أن يثبت للمسلمين أنهم هم الرابحون .. إنه يضع مكاسبهم فى ناحية .. والهزيمة الجزئية فى ناحية أخرى .

١ – ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ .

٢ – ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

٣ – ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٦٤ .

٤ - ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ .

٥ - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ .

٦ - ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

أكل هذه الأرباح وتعتبرون أنفسكم مهزومين ؟! :

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١] .

---

(١) سورة آل عمران - آية رقم ١٦٥ .

ثم إن ما أصابكم لم يكن عفوًا وبلا تقدير .. بل لحِكمٍ شتى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾(١) .

١ - ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

٢ - ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ .

٣ - ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

٤ - ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ .

٥ - ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

٦ - ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ .

هكذا يجمل العبر ، ويواسى الجراح ، ويفتح طريق الأمل ، ويرشدهم إلى الطاعة والانقياد ، ويغرس فى

---

(١) سورة آل عمران - آية رقم ١٦٦ .

نفوسهم بذلك أهم تشريع عسكرى فى وجوب الطاعة والتزام النظام ، والحرص على تنفيذ الخطة ، ووضوح الهدف دائمًا ، وعدم الانحراف عنه إلى الدروب الفرعية التى تستنفد الجهد ، وتبطئ فى الوصول .. بل ربما لا تصل بهم إلى الغرض المنشود ، وصدق الله العظيم : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]

فى أعقاب " أُحد "

ارتحل " أبو سفيان " وهدأت العاصفة ، وظن المسلمون أن الدرس قد انتهى ، وأنهم سيضمدون جرحاهم ، ويعودون إلى المدينة .. لكن القائد الموحى

---

(١) سورة الأنفال – آية رقم ٤٦ .

إليه ، ذا العقل المتقد ، والبصيرة النافذة .. ينظر إلى أبعاد هذه المعركة إنه مثخن بالجراح .. وأصحابه كذلك لكن الخطر ما زال يبرق فى الأفق !!

ألا يجوز أن يركب القرشيون رؤوسهم ويعودوا ثانيًا – بعد أن يفيقوا من غمرة النصر المقتنص – إلى المدينة يستبيحون أعراضها بعد أن فهموا أنهم هزموا أصحابها ؟!! إن ذلك ممكن ومنتظر .. بل هذا هو ما كاد يحدث !!

إذن فليؤذن فى المسلمين الجرحى – صبيحة يوم الأحد ١٦ من شوال للسنة الثالثة للهجرة – بالتأهب للمسير فى طلب القوم .. وليعلن ألا يخرج معهم إلا من كان حاضرًا بالأمس ، أما من فر ووصل إلى المدينة فلا خير فيه ، ولا رجاء منه .. إن هؤلاء الجرحى هم الصادقون .. وخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى

" حمراء الأسد "[1] (على بعد ثمانية أميال) فأقام بها أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء ١٧ ، ١٨ ، ١٩ من شوال ، وفى هذه الأثناء مر بهم " معبد بن أبى معبد " الخزاعى (وكانت " خزاعة " مسلمهم وكافرهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة) وهو يومئذ مشرك .. فقال : " يا **محمد** أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ولوددنا أن الله عافاك منهم " ، ثم لحق " معبد " " أبا سفيان " ومن معه " بالروحاء " وإذا بنبوءة رسول الله ﷺ تتحقق .. فوجدهم " معبد " وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا : " أصبنا أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرّنّ على بقيتهم فلنفرغَنّ منهم " ، فلما رأى " أبو سفيان " " معبدًا " ، قال : " ما وراءك يا **معبد** ؟ " قال : " **محمد** .. خرج

---

(١) نبى البر .

فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا ،قد اجتمع معه من تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا .. وفيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط " ، قال : " ويحك ما تقول " ، قال : " والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصى الخيل " ، قال : " فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم " ، قال : " فإنى أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتى ∴ إذ سالت الأرض بالجُرد الأبابيل

تردى بأسد كرام لا تنابلة ∴ عند اللقاء ولا حزق معازيل

فظلت عدوا أظن الأرض مائلة ∴ لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ∴ إذا تغطمطت البطحاء بالجيل

إنى نذير لأهل البسل ضاحية ∴ لكل ذى إربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وخش تنابلة ∴ وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

قال " صفوان بن أمية " : " لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا ، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا " ، فرجعوا .. ولقى " أبو سفيان " قبل ذلك ركبًا من " عبد القيس " فحملهم رسالة إلى النبى ﷺ يخبره فيها أن قريشًا تنوى أن تستأصل بقيتكم فمر الركب على رسول الله ﷺ وهو بـ " حمراء الأسد " فبلغ الرسالة .. فقال المسلمون جميعًا : " حسبنا الله ونعم الوكيل " .

وفى عودة رسول الله ﷺ وقع " أبو عزة " الشاعر الغادر فى قبضته ، فأخذ يستعطف ، فأبى النبى ﷺ وقال : « **والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول ، خدعت محمدًا مرتين .. اضرب عنقه يا " زبير "** » فضرب عنقه .

وبهذه المظاهرة الناجحة وفيمن اشتركوا فيها على ما بهم من ألم الجراح ، أشاد القرآن الكريم ، حيث قال :

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1] .

الدرس المستفاد

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وقد تعلموا من درسهم القاسى :

أولاً : قيمة الطاعة والانقياد ، فالجماعة التى يغلب على أفرادها وطوائفها نزعات فردية نافرة لا تنجح فى صدام .. والأمم كلها – مؤمنها وكافرها اليوم – تفهم

---

(١) سورة آل عمران – آية رقم ١٧٢ ، ١٧٣ .

لك الحقيقة وعليها قام نظام الجندية .. وعندما تشتبك أمة فى حرب تجعل أحزابها جبهة واحدة ، وأهواءها رغبة واحدة ، وتخمد أى تمرد أو شذوذ ينجم فى صفوفها .

وثانيًا : تعلم المسلمون أيضًا أن أسرع الناس إلى الشغب والتمرد من أقصوا من الرئاسة وهم إليها طامحون ؛ إذ كان " عبد الله بن أبىّ " مثلاً لهذا الفريق الذى يضحى بمستقبل الأمة فى سبيل أطماعه الخاصة .

وقد أكرم الله عددًا ضخمًا من صحابة رسول الله ﷺ بالاستشهاد فى ذلك اليوم العصيب ، بلغ خمسة وسبعين شهيدًا(١) .

---

(١) نبى البر ؛ وفى تاريخ اليعقوبى يذكر أنهم ثمانية وستون ؛ وفى كتاب البدء والتاريخ أنهم خمسة وستون فقط .

وأمـر رسـول الله ﷺ بـدفن الشـهداء حيـث قتلـوا ، فكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى " **أُحد** " فى ثوب واحد .. ثم يقول : « **أيهم أكثر أخذًا للقرآن ؟** » فـإذا أشير إلـى أحدهما قدم فـى اللحد .. ولمـا انصـرف عنهم قال : « **أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح فى سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك** » .

وظلت لهذا الجيل الأشم ذكريـات فـى نفس رسـول الله ﷺ فكـان يقول : « **" أُحد " جبـل يحبنـا ونحبـه** » ، فلما حانت وفاتـه جعل آخر عهده بذكريات البطولـة أن زار قتلى " **أُحد** " .

موقف " قريش " من هذا النصر

أمـا " قـريش " فقـد صُـرع منهـا اثنـان وعشـرون مشركًـا .

وحينما وصلت قريش ، أرسلوا أشعارهم تفاخرًا بهذا النصر الجزئى التافه .. قال " ابن الزبعرى " :

أبلغا " حسان " عنى آية .·. فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

كم نرى بالحر من جمجمة .·. وأكفٍ قد أترت[1] وحَدل[2]

إلى أن قال :

ليت أشياخى ببدر شهدوا .·. جزع الخزرج من وقع الأسل

وأجابه " حسان بن ثابت " بقوله :

ولقد نلتم ونلنا منكم .·. وكذاك الحرب أحيانًا دول

وتركنا فى قريش عورة .·. يوم بدر وأحاديث المثل

من بطولات الرجال في " أُحد "

رجولة فارعة .. تلك التى اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها .. فماد أمامها واضطربت من تحت

---

(١) من تر الشىء : بدده .
(٢) معاقد الأزر .

أقدامـه الأرض .. فمـا تمالـك نفسـه مـن الانـدحار أول القتـال ، ومـا انتفـع بمـا ربحـه آخـره .. وهـذا اللـون مـن البطولـة مـدفون تحـت جدران التـاريخ الإسـلامى القـائم بيننا إلـى اليوم .. ومـا يقوم للإسـلام صـرح ، ولا ينكف عنـه طغيـان إلا بتلـك القوى المـذخورة المضـغوطة فـى أفئدة الصديقين والشهداء .

١ – حين أرجف المسلمون بقتـل رسـول الله ﷺ اجتمـع بعض الصحابة فوق سفح جبل ، فقال أحدهم : "ليت لنـا بـابن **أبـىّ** يأخـذ لنـا عهـدًا مـن **أبـى سـفيان** ألا يقتلنا " ، وبينما هم يتنـاجون ، إذ مـر علـيهم " أنـس بن النضر " ، فقال : " ما يجلسكم ؟ " قـالوا : " قتـل رسـول الله ﷺ " .. قـال : " فمـاذا تصنعون بـالحيـاة بعـده ؟ قومـوا فموتـوا علـى مـا مـات عليـه رسـول الله ﷺ " .. وانفتـل مقدمًا علـى القـوم ، فقاتـل حتـى قتـل ، فوجـدوا بـه سـبعين ضـربة .. ومـا عرفـه إلا أختـه ببنانـه .

وهكذا صدق وعده مع الله حين قال فى مجلس الشورى : " لئن أشهدنى الله قتال المشركين فليرين الله ما أصنع " .

٢ - خرج " عبد الله بن جحش " يوم " **أُحد** " وهو يقول : " اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدًا فيقتلونى ، ثم يبقروا بطنى ويجدعوا أنفى وأذنى ، ثم تسألنى فيم ذلك ؟ فأقول : فيك " ، قال " سعد بن أبى وقاص " : " لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط .. فأطلق عليه " المجدع فى الله " .. ودفن مع " حمزة " فى قبر واحد .

٣ - كان " عمرو بن الجموح " أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء يغزون جميعًا مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى " **أُحد** " أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : " إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك

الجهاد " ، فأتى " عمرو " رسول الله ﷺ فقال : " إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة " .. فقال رسول الله ﷺ : « **أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد** » .. وقال لبنيه : « **وما عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله ﷻ أن يرزقه الشهادة** » ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم " أُحد " شهيدًا .

٤ – روى " ابن إسحاق " أن رسول الله ﷺ قال : « **من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟** » ، فقال رجل من الصحابة (قيل " أبيّ بن كعب " ، وقيل " زيد بن حارثة ") : " أنا " .. فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق ، فقال له : " إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات " ، فقال : " أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي .. وقل له : إن

سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته ، وأبلغ قومك منى السلام وقل لهم : إن **سعد بن الربيع** يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف !! " .

٥ ـ كان " حنظلة بن أبى عامر " قد أوى إلى فراشه منذ ليلة واحدة فى ظل بيته الهادئ الوديع فى أول ليلة من عرسه .. وسمع نداء الحرب وهو فى أحضان زوجته .. فتصارع فى نفسه عاملان : اللذة التى كان يحلم بها منذ زمن ، ودافع الإيمان الذى يناديه للنضال .. وانتصر الإيمان فى نفس " حنظلة " .. واندفع إلى الميدان قبل أن يغتسل ، وخرج الفتى الشاب يجالد ويناضل بعزم وإقدام ، حتى استطاع أن يعلو مفرق " أبى سفيان " .. ولكن عدو الله " شداد بن الأسود الليثى " طعنه من الخلف طعنة استشهد إثرها ، وانكبت عليه الملائكة

تغسله من جنابته ، ليصعد إلى ربه نموذج الطهر والشرف والتضحية والفداء ، وليخلد اسمه بعد ذلك " حنظلة غسيل الملائكة " .

٦ – كان " الأصرم بن عبد الأشهل " يأبى الإسلام وينكره .. فلما رأى شجاعة المسلمين ودفاعهم الباسل فى " أُحد " مالت نفسه إلى الإسلام .. فكما أن الشاعر يشجيه بيت الشعر ، فكذلك الشجاع يطربه منظر الشجاعة .. وتقدم الرجل الصفوف ، وناضل نضال الأبطال الميامين ، حتى أثخنته الجراح ، وتكاثرت عليه السيوف ، فإذا به يخر على الأرض جريحًا ينضح منه الدم الزكى ، ليشهد له عند الله أنه من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسأله المسلمون : " لقد كنت حتى الأمس عدوًا عنيدًا " ، فيجيب : " رغبت فى الإسلام فآمنت بالله ورسوله ، ثم أخذت سيفى ، ثم

غدوت فلحقتكم " ، وتتقطع أنفاس الشهيد الذى لم يتمكن أن يركع لله ركعة واحدة ، لكنها التضحية والإيمان ، فليس الإسلام صلاة وصيامًا فحسب :

يا ويح للدين ممن بات يحسبه ∴ وقتا يصام وأوقاتا يصليها
وإنما الدين إيمان وتضحية ∴ وعزة تنشر الدنيا وتطويها

٧ - كان " عبد الرحمن بن أبى بكر " مشركًا ، وخرج من صفوف المشركين مبارزًا .. فثارت الحمية فى نفس والده الصديق ، ضاربًا بحنان الأبوة وشعور الفطرة عرض الحائط ، وانتفض قائمًا ليبارز ابنه ، ويسكت فى رأسه هذا الطيش الأحمق ، والكفر الأخرق .. لكن رسول الله ﷺ يخشى على صديقه الشيخ من ولده الشاب الفتى ، فقال لصاحبه : **« أمتعنا بك يا أبا بكر »** ، وفى هذه الكلمة على إيجازها إكبار وتقدير .. وفى نفس الوقت منع لصاحبه وخوف عليه .

٨ – قال " كعب بن مالك " : " كان أحد المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة .. وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لامته فمضيت حتى كنت وراءه ، ثم قمت أقدر المسلم الكافر ببصرى .. فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم لكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف بلغت وركه ، فتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه ، وقال : " كيف ترى يا كعب ؟ **أنا أبو دجنة** !! " .

٩ – روى الحاكم فى مستدركه أن " سعد بن أبى وقاص " قال : " لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم " **أُحد** " قلت : أذود عن نفسى فإما أن أستشهد ، وإما أن ألحق برسول الله ﷺ .. فبينما

أنا كذلك إذ برجل مخمر وجهه ما أدرى من هو ، فأقبل المشركون حتى قلت : قد ركبوه ، فملأ يده من الحصى ، ثم رمى به فى وجوههم فانكبوا على أعقابهم القهقرى حتى أتوا الجبل .. وفعل ذلك مرارًا ، ولا أدرى من هو ، وبينى وبينه **المقداد** .. فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال **المقداد** : يا **سعد** هذا رسول الله ﷺ يدعوك .. فقلت : أين هو ؟ فأشار إليه فقمت وكأنه لم يصبنى شىء من الأذى.. وأجلسنى أمامه فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك .. ورسول الله ﷺ ينثر كنانته ويعطينى وهو يقول : « **ارم فداك أبى وأمى** » " ،

ولم يجمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد سوى " سعد "

تلك أمثلة رجال أقاموا أركان الإسلام : لبناتها من جثث ، وتماسك اللبنات من دماء .. تلك قصص أبطال لم أشأ أن أعلق على بسالتها وشهامتها .. بل جعلت

الموقف التاريخى نفسه يشهد ويفخر بشهادته .. أن عزماتهم ودماءهم كانت الممر القانى الذى وصلّنا عليه نور الحق براقًا لا يخبو له ضياء .

من بطولات النساء

أما النساء .. فلهن دور خطير فى كل معركة خاضها الإسلام .

وتلك أمثلة تاريخية لبطلات مجيدات .. كانت تساوى المرأة منهن آلاف الرجال ، فليست المسألة مسألة رجال ونساء .. ولكنها الإيمان .. والإيمان فى أى وعاء يصنع المعجزات .

١ – حدثت " نسيبة المازنية " عن نفسها فقالت :

" خرجت في أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه ، والدولة والريح معهم .. فلما

انهزموا انحزت إلى رسول الله ﷺ وقمت أباشر القتال بالسيف ، وأرمى عن القوس .. حتى خلصت الجراح إلىّ وذكرت محدثتها أنها رأت على عاتقها جرحًا أجوف له غور ، فقالت : " من أصابك ؟ " قالت : " ابن قميئة " .. لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : " دلونى على **محمد** فلا نجوت إن نجا " فاعترضت له أنا و " مصعب بن عمير " وأناس فضربنى هذه الضربة ولكننى ضربته عليها ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان .

٢ – كانت " أم أيمن " حاضنة رسول الله ﷺ فى نساء من الأنصار يسقين الماء ، فرماها مشرك بسهم أصاب ذيل ردائها ، فدفع النبى سهمًا إلى " سعد ابن أبى وقاص " وقال : « **ارمه** » ، فرماه فأصابه فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « **استقاد لها سعد أجاب الله دعوتك وسدّد رميتك** » .

٣ - كانت أم المؤمنين السيدة " عائشة " و" أم سليم " و" أم سليط " ، يحملن القرب يوم " **أُحد** " ، ويسقين الظمأى فى ميدان القتال فيفرغن الماء فى أفواههم ، ويرجعن سريعًا فيملأنها ثم يعدن فيفرغنها .. وكانت السيدة " فاطمة الزهراء " تضمد جراحات أبيها وتوقف له النزيف .

٤ - جاءت السيدة " صفية بنت عبد المطلب " (عمة الرسول ﷺ) لتنظر أخاها " الحمزة " ، فقال النبى ﷺ لابنها " الزبير " : « **القها فارجعها لا ترى ما بأخيها** » .. فقال لها : " يا أُمَّهْ ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى " ، فقالت : " ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّلَ بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله " ، فلما أخبر " الزبير " النبى ﷺ قال :

« **خل سبيلها** » فأتته فنظرت إليه وصلّتْ عليه واسترجعت واستغفرّت له .

ولما انكشف المسلمون فى " **أُحد** " أوت نساء المسلمين إلى خيامهن فوق الجبل ، وكان معهن الشاعر " حسان بن ثابت " ، فجاء يهودى وحاول أن يصعد الجبل وهو يقول : " الآن بطل السحر " ، فقالت " صفية " : " قم يا حسان فاضرب اليهودى " ، فقال : " لو كان لى بنزال الأبطال ما تخلفت عن رسول الله ﷺ " ، فخرجت السيدة " صفية " من الخباء وتناولت خشبة ضربت بها اليهودى فقتلته وعادت .. فقالت : " قم يا حسان فاسلبه ، فما منعنى من سلبه إلا أننى امرأة " ، فقال : " لا حاجة لى بسلبه ، لعل به حياة " .

٥ - فى طريق الجيش الإسلامى إلى المدينة قابلتهم امرأة ، فنعى لها زوجها وأخوها وأبوها ، فقالت :

" ما فعل رسول الله ﷺ ؟ " ، قالوا : " خيرًا هو بحمد الله كما تحبين " .. قالت : " أرونيه أنظر إليه " فلما رأته اطمأنت ، وقالت : " كل مصيبة بعدك جَلل (هينة) " .

هؤلاء نساء الإسلام شاركن فى كل مجال بما يليق بهن وبما يستطعن أن يبرزن فيه : سقاء .. تضميد ، علاج ، ووقت الخطر تدافع وتحمل السلاح كما دافعن عن رسول الله ﷺ ، وتستخدم أدوات البيئة كما فعلت عمة الرسول ﷺ ، ورضى الله عنهن جميعًا .

آثار " أُحد "

المحنة دائمًا تصهر المعادن ، وتظهر الحقائق ، ويستبين منها العدو والصديق ، ففى ساعة النصر يمالئ الجميع ، وينافق الكثير .. أما فى النكسة – ولو كانت

نكسة ظاهرية فقط .. وجزئية تافهة فى ميزان الحقيقة والواقع – فيمتاز الخليل المخلص من العدو المستتر !!

إن " قريشًا " تعلم البطولات الفذة التى أبداها المسلمون .. وتعلم أيضًا أنها انتصرت بالصدفة والحيلة وما كان لها أن تنتصر .. لكن الناس الآخرين الذين لم يشاهدوا المعركة لهم النهاية فحسب .. وعلى ذلك :

١ – تجرأ أعراب البادية .

٢ – وعالن اليهود بالسخرية .

٣ – وشمت المنافقون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : " لو أطاعونا ما قتلوا " .

وتألبت قوى عديدة ضد الإسلام .. تتضح مؤامراتها ومحاولاتها فيما بعد .. وإنه لمن أصعب الأمور قيادة الأمم عقب الهزائم !!

أولاً : سرية " أبى سلمة " :

لم يمض شهران على " **أُحد** " حتى تهيأ البدو لغزو المدينة ، وقد حسبوها لقمة سائغة ، فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث " أبى سلمة " على رأس مائة وخمسين رجلاً .. فبغت القوم فى رحالهم قبل قيامهم بالغارة المبيتة .. فشتت شملهم واستاق نعمهم ، وعاد مظفرًا منصورًا ، لولا أن نغر عليه جرحه فى " **أُحد** " فالتحق بقافلة الشهداء .

ثانيًا : سرية " عبد الله بن أنيس " :

حاول " خالد بن سفيان الهذلى " أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبى ﷺ " عبد الله بن أنيس " فقتله وهو يجتهد فى تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

ثالثًا : يوم الرجيع :

أوحت هذيل إلى حليفتها عضل لتنتقم لسيدها " خالد " ، فقدم وفد من قبائل " عضل والقارة " على رسول الله ﷺ يذكر أن أنباء الإسلام قد وصلتهم .. ويحتاجون إلى من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن الكريم .. فأرسل النبى ﷺ رهطًا من الدعاة يبلغون عشرة رجال يرأسهم " عاصم بن ثابت " .. حتى إذا كانوا بين " عسفان " و " مكة " قريبًا من " هذيل " عند ماء يقال له " الرجيع " ظهر الغدر المبيّت .. فما شعر الدعاة إلا بالسيوف تحصد رقابهم بأيدى هؤلاء الغدرة الفاجرين .. وبمعونة قوم من " هذيل " ، واستسلم ثلاثة للأسر ، وبيع الأسرى لـ " قريش " .. فحاول أحدهم " عبد الله بن طارق " أن يفلت فقتلوه ، واشترى " صفوان بن أمية " الأسير الثانى " زيد بن الدثنّة " ليقتله بأبيه .. وعندما أراد قتله حدث مشهد من أروع ما

خلده التاريخ : " زيد " يتهيأ لفصل رأسه من عنقه ، و" أبو سفيان " يناقشه : " أنشدك الله يا زيد أتحب أن **محمدًا** الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟ " فقال البطل المؤمن : " والله ما أحب أن **محمدًا** الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى " ، فقال " أبو سفيان " : " ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب **محمد محمدًا** " ، ثم قتل زيد ، وصدق الشاعر :

أسرت قريش مسلمًا فى غزوة ∴ فمضى بلا وجل إلى السياف

سألوه هل يرضيك أنك آمن ∴ ولك النبى فدى من الإتلاف

فأجاب كلا لا سلمت من الردى ∴ ويصاب أنف نبينا برعاف

وأما الثالث فهو " خبيب " اشتراه " عقبة بن الحارث " ليقتله بأبيه .. فلما خرجوا من الحرم ليصلبوه قال لهم : " إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا " قالوا : " دونك فاركع " فركع ركعتين ،

أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : " أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة " (فكان " خبيب " أول من بدأ هاتين الركعتين) ، ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال : " اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا " ثم قال : " اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تغادر منهم أحدًا " واستقبل الموت والمثلة وهو ينشد :

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ∴ على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ∴ يبارك على أوصال شلو ممزع

رابعًا : بئر معونة :

كان هذا الذى حدث بـ " الرجيع " فى صفر سنة ٤ هجرية[١] ، ومع أن هذا الغدر وتلك الفاجعة كانت كفيلة

(١) فقه السيرة ، السيرة النبوية .

بحرص المسلمين وحذرهم .. إلا أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يمنع نور الله أن ينتشر ، ولو ضحى بهؤلاء الأبطال .. وما أدراه ؟ لعلهم صادقون !! إنه كان يرى أن هذه التضحيات لابد منها ؛ فالتاجر يتحمل المغارم كى لا ينكمش نشاطه .. أو تهتز مكانته !! فما بالك بالنبى ﷺ وسلعته الهداية والسعادة ؟!!

لقد أتاه فى نفس الشهر " أبو براء عامر بن مالك " الملقب " بملاعب الأسنة " وعرض عليه أن يرسل وفدًا من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .. فأبدى النبى ﷺ خشيته أن يصابوا بسوء .. فقال " أبو براء " : " أنا لهم جار " .

وبلغ الدعاة " بئر معونة " وكانوا سبعين من خيار الدعاة ، يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، ويحيون على هذا النسق الرتيب .. وكان رئيسهم " المنذر بن عمرو " الأنصارى ، وهو أخو بنى ساعدة .

وهناك أرسلوا أحدهم وهو " حرام بن ملحان " إلى " عامر بن الطفيل " رأس الكفر فى هذه البقعة فلم يلتفت إلى الرسالة ..واغتال حاملها وهو يصيح : " فزت ورب الكعبة " !!

وانضمت إليه قبائل من " رعل وذكوان والقارة " واستأصلوا بقية السبعين إلا رجلين لم يكونا مع زملائهم ، أحدهما " عمرو بن أمية الضمرى " الذى عرف خبر إخوانه من أسراب الطير المحمومة حول الجثث ، قال " عمرو " لزميله : " ماذا ترى ؟ " فقال زميله : " ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه **المنذر** (وكان صديقًا له من هؤلاء الدعاة) وما كنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال " .. وهجم على الأعراب حتى قتل ، وأسر " عمرو " فأعتقه " عامر بن الطفيل " كبير الغادرين عن رقبة زعم أنها على أمه !! وعاد " عمرو " إلى النبى ﷺ حاملاً معه خبر المصاب الفادح .

وبذلك انكشفت خبيئة الوثنية ، بضميرها المملوء بالأحقاد ، والتجرد من الشرف والوفاء والإنسانية

الوفاء بالوعد

مر بنا توعد " أبى سفيان " عقب انتهاء " **أُحد** " بقوله : " موعدكم **بدر** العام المقبل " ، ورد عليه مندوب المسلمين : " نعم هو بيننا وبينك موعدًا " .

وما كان رسول الله ﷺ ليخلف وعدًا قد التزمه ، لذا خرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ، وحمل لواءه " علىّ بن أبى طالب " واستخلف على المدينة " عبد الله بن رواحة " ، وسار الجيش حتى وصل " **بدرًا** " فأقام بها ثمانية أيام .

وخرج " أبو سفيان " بالمشركين من " **مكة** " ، وكان عددهم ألفين ، وسار بهم حتى وصل " مر

الظهران " (شمال شرق المدينة بنحو ثلاثين كيلومترًا) وهناك استبد به الرعب ، فقام فى الناس خطيبًا : " أيها الناس إنى واعدت محمدًا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر وإن هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن .. وقد بدا لى أن أرجع فارجعوا " ، فرجعوا وسط سخرية " قريش " التى كانت تخاطبهم : " إنما خرجتم لتشربوا السويق " .

وفى هذا يقول " عبد الله بن رواحة " :

وعدنا أبا سفيان وعدًا فلم نجد ∴ لميعاده صدقا وما كان وافيًا

فأقسِمُ لو وافيتنا فلقيتنا ∴ لأبْتَ ذميما وافتقدت المراقيا

تركنا به أوصال عتبة وابنه ∴ وعمرًا أبا جهل تركناه ثاويا

إلى أن قال :

وإنى وإن عنفتمونى لقائل ∴ فدى لرسول الله أهلى وماليا

أطعناه لم نعدله فينا بغيره ∴ شهابًا لنا فى ظلمة الليل هاديا

خاتمـــــة

السيرة بين الأمس واليوم

وتوارت السيرة النبوية البناءة ، خلف أكوام من سذاجة الجهلاء ، وتحولت إلى تراتيل جوفاء ، وقصة بكماء .. تحكى صورًا من السلبية والخرافات ، بعد أن كانت تمنح المسلمين طاقة عالية من حرارة الإيمان ، والتضحية والفداء .

على أن التبر مهما وضع فوقه من تراب لن يفقد قيمته ، ولن يخبو ضوؤه ، فلا تزال سيرة نبيّنا الكريم ﷺ تحمل بين طياتها عوامل القوة والكفاح ، مهما ارتضع المسلمون من أثداء الوهن .. ومهما ضلت أذهانهم عن طريق النور .

إن فى سيرة رسول الله ﷺ لقوى مشعة ، وأضواء هادية ، تبدد كل فتنة ، وتفتت كل عقبة ، وتقشع كل قتام

فى سيرة رسول الله ﷺ تربية للنفس المسلمة ، تنطلق بها من قمقم الدنيا القاتم إلى آفاق الله الفساح ، ترفرف فيها بأجنحة من نور .

فى سيرة رسول الله ﷺ روح يسرى فى القلوب ، وسر يلمس حنايا الأفئدة : فيحرك أشواقها حتى تصعد إلى مراقى العلا ، مطلة على الدنيا ، جالسة فوقها ، مفاخرة بأنه لا يعلوها إلا الله ، ولا تسير إلا فى نوره الأبيض الوضاح .

فى سيرة رسول الله ﷺ برنامج واضح لنصر الحق وتخطيط دقيق للوصول إلى الهدف ، ومنهاج لا يخطئ الغرض ، لأنه قد رسم فى السماء .. ولأنه متساو مع سنن الكون ونواميسه ، وأسبابه ومسبباته .. إن الإسلام

لم ينتشر بالمعجزة ، ولا بالسحر ، ولا بالصدفة ، بل بما يحمله فى طياته من عوامل البقاء ، بجانب الكفاح المستميت : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] .

بهذا الكفاح الذى صعدت معه أرواح طاهرة .. ومثل فيه بأبطال بررة ، استهانوا بالحياة ، وبكل قوى الأرض ؛ لأن معهم واهب الحياة ، وكل قوى السماء .

وقد مر بنا فى هذا البحث القصير شواهد من التاريخ الأغر فى " **أحد** " .. ورأينا كيف كانت قوة الكفر حاقدة مستعرة .. على حين كان جند الإسلام شبه أعزل ، وبالرغم من ذلك فقد مادت أمامه القوى و القدر ، لأنه كان مع رب القوى والقدر ، حتى إذا ما هزه

---

(١) سورة الأحزاب - آية رقم ٢٣ .

الشيطان ولوح له بزينة الحياة ، فنسى تلك القوة بعض اللحظات ، وعصى أمر رسول الله ﷺ ، إذا بالنكسة تحدث ، وإذا بالميزان ينقلب : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب – آية رقم ٦٢ .

المراجـــع

١ – تاريخ الطبرى .

٢ – تاريخ اليعقوبى .

٣ – تاريخ ابن خلدون .

٤ – الكامل لابن الأثير .

٥ – البداية والنهاية لابن كثير .

٦ – البدء والتاريخ للمقدسى .

٧ – حياة محمد لمحمد حسين هيكل .

٨ – السيرة النبوية للنجار .

٩ – فقه السيرة لمحمد الغزالى .

١٠ – نبى البر لابن هشام .

تعريف بالمؤلف

الاسم : الأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدى عبد اللّه حسنين .

تاريخ الميلاد ومحله : ١٩٣٩/٤/١٣م - تصفا - مركز كفر شكر - قليوبية .

العمل الحالى : أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين - جامعة الأزهر - القاهرة .

مراحل التعليم :

- التحق بمعهد الزقازيق الدينى سنة ١٩٥١م وحصل منه على الابتدائية سنة ١٩٥٥م ، والثانوية سنة ١٩٦٠م .
- التحق بكلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٠م ، وحصل منها على العالية (الليسانس) سنة ١٩٦٥م بتقدير « جيد جدًّا مع مرتبة الشرف » ، والتخصص (الماجستير) فى اللغويات سنة ١٩٧١م بتقدير « جيد جدًّا » والعالمية (الدكتوراه) سنة ١٩٧٦م مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة وتبادلها مع الجامعات الأخرى .

التدرج الوظيفى :

- محرر مراجع بصحيفة الأخبار المصرية من سنة ١٩٦٣م إلى سنة ١٩٦٦م .
- أمين عام المكتب الفنى للنشر والصحافة بالجامعة الإسلامية بليبيا من سنة ١٩٦٦م إلى سنة ١٩٦٩م .
- مشرف عام على تحرير مجلة الهَدْى الإسلامى بليبيا .
- محرر بصحيفة الأهرام من سنة ١٩٧٠م إلى سنة ١٩٧٥م .
- مستشار صحفى لوزير شئون الأزهر بالمكتب الفنى للوزير سنة ١٩٧٤م .
- معيد ومدرس مساعد بكلية اللغة العربية بأسيوط من سنة ١٩٧٥م .
- مدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية ، وأستاذ مساعد من سنة ١٩٧٦م .
- رئيس قسم اللغة العربية وآدابها من سنة ١٩٨٣م .
- أستاذ مساعد وأستاذ مشارك بجامعة أم القرى بمكة من سنة ١٩٧٩م إلى سنة ١٩٨٢م ، ومن سنة ١٩٧٨م إلى سنة ١٩٩٢م .
- أستاذ بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٩٩٦م .

أنشطة خارج الوظيفة :

- عضو بلجنة القرآن وعلومه بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف من سنة ١٩٩٥م ، والآن هو مقرر اللجنة .
- عضو لجنة تحكيم المسابقات الثقافية والدينية بالمجلس الأعلى للشباب والرياضة من سنة ١٩٨٢م .
- عضو بنقابة الصحفيين من سنة ١٩٧٠م إلى الآن .
- عضو بهيئة كبار علماء الجمعية الشرعية وأمين عام مجلس الإدارة ورئيس لجنة الإشراف على معاهد إعداد الدعاة من سنة ١٩٨٥م .
- عضو بلجنة تقنين الشريعة الإسلامية بمجلس الشعب المصرى سنة ١٩٧٨م .
- خبير وباحث بمكتب فضيلة شيخ الأزهر سنة ١٩٧٩م .
- عضو بلجنة اختيار قراء التليفزيون المصرى سنة ١٩٨٤م .
- مشارك فى جميع البرامج الدينية بالإذاعات المسموعة والمرئية بمصر والدول العربية بقنواتها المختلفة من سنة ١٩٧٦م .
- رئيس تحرير نشرة « التبيان » التى تصدر عن الجمعية الشرعية الرئيسية .
- إمام أهل السنة ، والرئيس العام للجمعيات الشرعية ، من أبريل سنة ٢٠٠٢م حتى الآن .

فهرس المحتويات